

غوستاف لوبون

gustave lebon

ترجمة: محمود خيرت المحامي

حضارة بابل وآشور



حضارة بابل وآشور

تأليف : جوستاف لوبون
ترجمة: محمود خيرت المحامي

القياس : ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات : ١٥٦ صفحة



طباعة ونشر وتوزيع:

بيروت - لبنان

٠٠٩٦١ ١ ٥٤١٩٨٠

العراق - بغداد

٠٠٩٦٤ ٧٨١٠٠٠١٠٠٥

Email: daralrafidain@yahoo.com

All rights reserved, is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book, or part thereof, or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders

© جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعتبر بالضرورة عن رأي الناشر..

حضارة بابل وآشور

تأليف
جوستاف لوبون

ترجمة
محمود خيرت المحامي



مقدمة

للمستاذ الكبير سلام موسى

عنيت المطبعة العصرية عناية كبيرة باخراج مؤلفات جوستاف لوبون باللغة العربية . وهذا الكتاب الذى نكتب مقدمته يختلف عما سبق أن ترجم له مؤلف . لأن الموضوعات التى عولجت فى الكتب السابقة كانت اجتماعية يبحث فيها المؤلف قيمة الأفكار الاشتراكية والثورة الفرنسية ونحو ذلك^(١) . أما هذا الكتاب فيبحث الحضارات القديمة فى بابل واشور مهد الأمم العربية الحاضرة .

ولسنا هنا بسبيل التقدير للفلسفة الاجتماعية التى كان جوستاف لوبون يؤمن بها ويدعو إليها فى أواخر القرن الماضى وبداية هذا القرن . فان تفكيره هنا كان ثمره الوضع الاقتصادى الذى كانت تعيش فيه طبقاته ، وثمره النهضة الاقتصادية التى كانت فرنسا تستمتع بها فى أيامه . فانه كان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة . وهى فى فرنسا تتألف من المالكين الصغار ، سواء أكانوا يملكون أرضاً للزراعة أو دكاكين للتجارة . وهؤلاء كانوا مطمئنين إلى عيشتهم ، يكرهون التغيير . ثم كانت الطوابع الاقتصادية القريبة لا تدل على خطر قادم . لأن أغلب المتاجر الكبيرة على المتجر الصغير لم يكن قد بدت أماراته . ومن هنا الموقف الفلسفى الاجتماعى الذى وقفه جوستاف لوبون . موقف المدافع عن حق الامتلاك الفردى ، الكاره

(١) وهذه الكتب القيمة هي «روح الاشتراكية» و«روح السياسة» و«روح الثورات» و«الآراء والمعتقدات» الناشر

للاتجاهات الاشتراكية بأنواعها. وهنا أيضاً محور فلسفته الاجتماعية حين يتكلم عن الثورة الفرنسية ، أو عن الأحزاب الفرنسية فيما بين ١٨٨٠ و ١٩١٠ ولكن جوستاف لوبون كان مؤرخاً قبل أن يكون فيلسوفاً . بل هو قد صار فيلسوفاً لأنه كان مؤرخاً . وعنايته بدراسة الأمم القديمة هي عناية المؤرخ العالمى الذى يحاول أن يكتب التاريخ باعتباره تاريخ الحضارة والتطور الاجتماعى وارتقاء الفنون ، وليس تاريخ الحروب والأمرء والنوادير عن ابهة هذا الملك أو كرم ذلك الأمير . ونحن فى هذا الكتاب نقراً وصفاً للدرجات الأولى فى سلم الرقى البشرى كما كانت ممثلة فى حضارتى بابل وأشور

وقد مات جوستاف لوبون قبل أن تظهر مدرسة البؤرة الواحدة . أى تلك المدرسة التى تزعمها البيوت سميث الانجليزى وبرستيد الأمريكى . وهى تقول إن الحضارة الأولى الزراعية إنما نشأت فى مصر فقط . ثم بعد ذلك شرعت تنفشى إلى جميع جهات العالم وقاراته . وإننا نجد بالاستقصاء آثار الحضارة المصرية القديمة فى انجلترا ، كما نجد لها فى مكسيكا والهند والصين ، بل حتى بين القبائل المتوحشة فى أفريقيا . بل هناك لغويون مثل رندل هاريس استطاعوا أن يردوا بعض الأسماء الانجليزية والروسية إلى أصل مصرى قديم . وعندما مثلاً أن أنقرة عاصمة تركيا إنما هى « أنخرع » . كما أن موسكو تعنى « مدينة الجلود أو الفراء » فى اللغة الفرعونية القديمة

ولكن جوستاف لوبون لم يدرك هذه المدرسة . ولو أنه أدركها لاتفجعنا كثيراً بتفكيره : المعارض أو المؤيد . فانه عالج أتم الشرق الأوسط باعتباره مستقلة الواحدة من الأخرى ، أى باعتباره البؤر المتعددة

للحضارات الأولى . ولكنه مع ذلك وجد وجوهاً كثيرة للتشابه توىء
إلى وحدة الأصل

ويستطيع القارئ الذى يطلب شرحاً موجزاً للنظرية القائلة بوحدة
الأصل أو البؤرة الواحدة للحضارة أن يقرأ كتابى « مصر أصل الحضارة »
وقيمة جوستاف لوبون هنا أنه جمع مقداراً عظيماً ، بل عظيماً جداً ،
من المعارف التاريخية عن هاتين الأمتين القديمتين . ونحن فى مصر
نحتاج الى الكثير من هذه المعارف ، وخاصة عن تلك الأمم السامية التى
تقع شرق مصر ، والتى تناوبت التاريخ وأصنائه قرونًا عديدة بألوان من
ثقافتها الفنية . وهو يسرد لنا قصة هذه الحضارات ، ويتدرج بنا من
البدايات المتواضعة ، فيتناول العقائد الدينية ووصف المعابد ، ثم يتدرج الى
ترف الملوك وارتقاء الفنون بما يكشف لنا عن صفحات مجهولة من التاريخ .
وهى جميعها تلصق بنا لأننا أبناء هذه الأمم وأحق البشر بدرسها . وكان يجب
أن تنفشى بيننا المؤلفات التاريخية فى وصف الآشوريين والآبرانيين
والممالك السامية العديدة من أرض النهرين الى تدمر وبطرة . وكان يجب
أن تستفيض بيننا المؤلفات عن حضارات الفراعنة المتوالية منذ العصور
الحجرية الى دخول العرب . ولذلك نحن نرحب بظهور هذا المكتتاب
لأنه يسد فراغاً أو بمض الفراغ . ولأنه ليس بقلم مؤرخ ، وإنما بقلم
فيلسوف ، أى بقلم أحسن المؤرخين . ذلك أن التاريخ يجب أن يكتب
فى استغراض وتحيز ، أى ان الكاتب يجب أن يكون له من سرد
الحوادث مغزى اجتماعى وهدف فلسفى . وهذا هو ما يفعله جوستاف لوبون
وبابل واشور ومدكتان نهضتا على أرض النهرين ، أى العراق تقريباً .

ولا يظن القارىء أن الصلة مقطوعة بين الدولة العباسية والدولة الاشورية. فان الخلفاء العباسيين وجدوا شعب اشور وبابل في العراق ، بل وجدوا أيضاً أولئك اليهود الذين كانوا قد نفوا من اورشليم قبل ١٤ قرناً الى أرض العراق . حتى ان نقيهم أيام العباسيين كان يقيم حقه في النقابة على أولئك الذين سبقوه قبل ١٤٠٠ سنة أيام النفي ، أى السبي

وقد عني المترجم المرحوم محمود خيرت عناية كبيرة في التزام الأصل. ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً . ويجب أن يضاف هذا الكتاب الى مكتبة التاريخ القديم عند كل متقف عربى

ويحسن بالقارىء الذى يدرس هذا الكتاب أن يقرأ أيضاً كتاباً آخر للمؤلف هو « الحضارة المصرية القديمة » الذى نقله الى العربية الاستاذ م . صادق رستم ، وقامت بطبعه ونشره المطبعة العصرية . ذلك لأن الحضارات الثلاث ، أى المصرية والبابلية والاشورية ، تفهم اكثر بالمقارنة والمضاربة . وهو ، أى القارىء ، يزداد معرفة بهذه الحضارات القديمة عندما يقرأ أيضاً كتابى « مصر أصل الحضارة » وهو تحت الطبع وقد حاولت في هذا الكتاب الاخير أن اشرح نظرية البؤرة الواحدة للحضارات القديمة . وهذه البؤرة ، كما قلت ، هي مصر .

وعندى أن أقرب الأشياء الى دراسة الدين هو دراسة التاريخ القديم . وقد كانت أوروبا في عصر النهضة تتعلم « الانسانية » بدراسة الأغريق والرومان القدماء حتى كانت تسمى هذه الدراسة باسم « البشريات » أو « الانسانيات » . ولا يزال هذا الاسم معروفاً في الجامعات الأوروبية الى اليوم . وذلك لأن التاريخ يكشف عن هذا التضامن البشرى في المجهود العام

نحو الرقي والثقافة والحضارة فيبيث على التفاؤل بالمستقبل والايمان بالخير العام . بل هو أحياناً يكشف أيضاً عن المأساة البشرية ، مأساة الفقر والظلم اللذين عانتهمما جواهر الأثم من استبداد الطغاة والمستبدين . اعتبر مثلا كلمة « مسكين » التي يعرفها الباريسيون في عصرنا الحديث بمعناها العربي ، معنى الذلة والحقارة والفقر بل ، العجز . فان هذه الكلمة كانت تدرج على ألسنة البابليين منذ أربعة آلاف سنة ، أى قبل الميلاد المسيحي بنحو ألفين من السنين بهذه المعانى أيضاً . وهنا مغزى يجب الانسائه

واعتبر أيضاً هذا التدرج فى المؤسسات البشرية : من الكهانة ، الى الملوكية ، الى القضاء . ومن العائلة الى المجتمع ، الى الفنون العصرية ، نجد أنه يكشف لنا عن سسنة التطور التى يجب الانحرف عنها . فان جميع هذه المؤسسات نشأت بدائية غشيمة ، ثم انتهت الى ما وصلنا اليه من ارتقاء عام .

بدأ حوربى فى بابل بمعاقبة المخطئ ، أو المجرم ، بمعقوبات انتقامية . ووصلنا نحن بالعقوبة حتى جعلناها أحياناً « مع وقف التنفيذ » . وكان ملوك القدماء آلهة . اعتبر الاسكندر المقدنى كيف كرّس وقدس فى معبد آمون حتى صار الهاك . أما فى ١٩٤٦ فقد أعلن امبراطور اليابانين للشعب أنه ليس الهاك . . .

وهكذا . نحن نسير فى تطور . ودراسة التاريخ القديم هى خير ما يضىء لنا هذا الطريق نحو التطور والرقي م

ابواب الكتاب

صفحة

٣	المقدمة ، بقلم الاستاذ سلامه موسى
٩	البيئة والجنس
١٩	تاريخ بابل واشور
٤١	اللغة والخط والأدب
٥٢	العلوم والصنائع
٧٠	النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعادات
٩٠	المعتقدات الدينية
١٠٤	فن الانشاء والعمارة
١٢٨	النحت والتصوير الملون والفنون الصناعية



الباب الأول

البيئة والجنس

١ - البيئة

إنَّ ما جادَ به نَهْرُ دجلة والفرات على الجزيرة والعراق (ما بين النهرين) من الخصب والرخاء لم يكن أقلَّ مما أسبقه نهر النيل على أرض مصر من هذا القليل . فمن فيضها أترعت الحياض والغدران ، وأمرعت الأودية والمروج بين المفاوز والصحارى ، فصارت مهذا لعصر جديد من عصور الحضارة الزاهية .



ولكنَّ هذين النهرين الاسيوين ليس لهما ما للنيل من النظام والقوة ، لأن فيضانهما لا يأتي بطريقة دورية ثابتة ، ولأن قوة جريانها ليست متساوية . فبينما يندفع نهر دجلة في مجراه اندفاعاً شديداً يعوق الملاحة ، ترى نهر الفرات ينحدر انحداراً غير محسوس ، ثم يفيض فينشر من حوله بطاحاً ومستنقعات فسيحة تضر بالصحة وتجعل المنطقة التي تعمها غير صالحة للسكن .

لذلك كانت أرض ما بين النهرين في أشدِّ حاجة الى سواعد الرجال وعملهم المتواصل (بخلاف وادي النيل) لتنظيم جريان المياه . فلم تستطع الحضارة هناك أن تيسر في ثوبها القشيب الأنيق إلا بعد أن أفرغ هؤلاء الرجال جهدهم في تقويم أود هذين النهرين . ولما وقفت حركة العمل وأهل نظام الري ، أجذبت الأرض وأحل الزرع والضرع ، فوقف السير في طريق الثروة وإنهارت مدينة تلك العواصم العامرة القائمة على ضفاف النهرين

وسرى بعد قليل مبلغ ما قام به هؤلاء الرجال من الأعمال الشاقة المتواصلة لادراك

الغاية من زراعة السهول الواسعة الأطراف في اراضي الجزيرة والعراق ، ونذكر
الأسباب التي حالت دون المضي في هذا السبيل .

على أن معظم أرض ما بين النهرين اليوم ليس إلا صحراء اندفنت في جوفها بقايا المدن
القديمة فصارَت آكاماً وتلالاً وكثبان رمال . فلا ترفع التراب عن وجه هذا السهل
الفخم حتى تتجلى لك من تحته عظمة تلك المدن التي كانت فيما مضى زاهرة عامرة .
وما من يوم يمر إلا ويتحف العالم بشيء جديد من الشواهد على مجد تلك الممالك العابرة
والآن لم يبق لنا سوى آثار تلك العظمة وذلك المجد القديمين ، حتى إن الأرض
نفسها التي كانت في الزمن الماضي كثيرة الحصب وافرة الغلال أصبحت كأنها سئمت
الانتاج . ومع ذلك ففي فصل الربيع ، حين يعيد الفيضان الى أوردها الخافة
بعض الحياة ، نراها تسترد شيئاً من الحصب والنضرة . ولكن رياح السموم اللالحة لا
تلبث أن تعيث بها في الصيف فتجف ، إلا ما كان منها على ضفاف الأنهر والجداول .
ثم أن الرطوبة المدفونة في الأرض في أسفل الفرات تُهيئ السيل لتفشي
الأوبئة ، ونحو المستنقعات في كثير من جهاتها دون صلاحيتها للسكنى . على أن
بعض فلول العرب القوا هذا الجو الويل ، حتى أنهم لا يضربون خيامهم أو يننون
أخصاصهم إلا في الآجام والغدران . وهناك لا تقع عينك على أشجار إلا عند ضفاف الأنهر ،
ولا يزيد ارتفاع سوقها عن خمسة أمتار . والزوارق تجرى بين صفيين منها ، ولكن ،
يا ويل ركابها حين يضعون أقدامهم على الأرض الغمقة فانهم يغوصون فيها .

ويجتمع نهر دجلة والفرات في شط العرب ^(١) . وقد كانا في العصر الذي قبل
التاريخ مستقلان عن بعضهما الى ان يصبأ في الخليج الفارسي . وكان بين مصبيهما نحو
عشرين فرسخاً . وقد تجتمع من رواسبهما مثلاً يشبه دلتا النيل ، يأخذ في الاتساع

(١) أطول وأعظم وأهم نهر في آسيا الغربية ، وله منبعان في جبال أرمينية ، أحدهما
الجنوبي واسمه « مَرَدَاشاي » يسير مستقلاً نحو ٢٧٠ ميلاً حتى يلتقي بنهر « فرات (Frat) »
الشمالي عند بلدة « كَرَبَّان مَادَن » فيتكون من مجموعهما نهر الفرات (Euphrates) الذي يسير
جنوباً حتى يتلاقى ونهر دجلة (Tigris) قبلما يصلأ الى الخليج الفارسي بنحو ستين ميلاً عن بلدة
الْقُتْرَة . ويسمى هذا الجزء الأخير المؤلف من نهرَي الفرات والدجلة « بِسْطَطُ الْعَرَب » . وطول
كل النهر بأقسامه الثلاثة ١٧٨٠ ميلاً من المنبع الى المصب .

شيئاً فشيئاً وبطريقة منتظمة بحيث يمكن الاهتداء الى قياسها .

وكل من النهرين صالح للملاحة . إلا أن سرعة تدفق الدجلة وقلة عمق الفرات يعوقان سير السفن الكبيرة . ولهذا السبب ، والسبب الذى سنذكره عند الكلام على الزراعة ، اضطر السكّان القدماء إلى إتمام عمل الطبيعة بما لجأوا اليه واستعانوا به من نظم الري .

ومن يطلع على تاريخ هيرودوتس ، يلم بما كانت عليه هذه البلاد - بلاد بابل واشور - من الحصار والعمران . فانه بعد أن ذكر مجدها وأشار إلى ثروة بابل العظيمة ، قياساً على ما كانت تدفعه من الخراج الى ملك الفرس ، قال :-

« ليست الامطار بغزيرة في بلاد آشور ، وهي لغتها تكاد أن لا تكفي لارواء جذور الحبوب المبنورة ؛ فكان الناس يعمدون الى استمرار ريتها بمياه النهر حتى تنضج . ولم يكن كثر التيل يفيض من نفسه فيروي ماحوله من السهل ، بل كان الري هنالك بحاجة الى سواعد عاملة وآلات رافعة

» على أن بابل كانت كصر ، كثيرة الترع والقنوات ، ومنها ما كان كافياً لسير السفن التي تنجى جنوباً بغرب من الفرات الى دجلة حيث تقع « نينوى » الشهيرة بمخضها وكثرة حنطتها « نعم انه لم يكن التين والعنب والزيتون من حاصلاتها ، وقد يكون ذلك لعدم تجربة غرسها فيها ؛ ولكنها مع ذلك كانت بطبيعة أرضها صالحة لزراعة كل نوع من أنواع الحبوب ، بحيث تبلغ غلة الكيلة مئتي كيلة وقد تبلغ الثلث مئة

» ولشدة الحصب كان عرض ورقة النبات يبلغ أربعة فراريط . واني وإن كنت لا أنجل مبلغ ارتفاع سوق الجاؤرس والسمسم ، فاني أضرب عن ذكره صفحاً لاعتقادي أن الذين لم يروا بابل لا يصدقون ما أذكره . عن غلاتها

« ثم ان البابليين كانوا يستعملون زيت السمسم (سبرج) بدلا من زيت الزيتون . وكانت سهول بابل مملوءة من النخيل ، وجلبه شمر ، وكانوا يقتاتون ببعضه ويستخرجون من الباقي عسلاً وخمراً » ولقد كانت أشجار النخيل لكثرتها من أكبر موارد الثروة في البلاد ، حتى ان « سترابون » كان يروي عنها شعراً فارسياً عد فيه نحو ثلاثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والارتفاع بها .

على أن حاصلات كلد و بابل لم تكن كحاصلات اشور أو أرض الجزيرة العليا ، لأن مناطق الأولى كانت عبارة عن سهل فسيح متصل ببعضه ببعض ، بخلاف الثانية التي كانت ترتكز في نصف دائرة على سلسلة جبال طوروس وأرمينية وكرديستان ، فهي لذلك منحدره ، ولأنها أيضاً على مقربة من قم تلك الجبال فقد كان هواؤها أقل

جفافاً وحرارة مما هو في بابل، وكانت مياهها غزيرة، ولذلك لم تصلح للنخيل ولكنها كانت صالحة لما يفرس في أوروبا من أشجار الكريز والبرقوق والشمش وغيرها، ولما ينمو في غاباتها من أشجار الجوز والبلوط.

على أن أشور لم تحل في شمالها من جبال يلوح للانسان انها قامت حائلا بين مجرى النهرين فاضطراً أن يختاراً منفذاً فيها حيث تتجمع المياه وتدور بين جدارين مرتفعين من حجارة سوداء شديدة الصلابة، وحيث لا يجد الانسان طريقاً يصلح لأن يضع قدمه فوقه. ولكن كثيراً من السياح دفعهم جرائهم الى المخاطرة بقواربهم الخفيفة في هذه الأحواض الموحشة وهم ثملون براح جمالها الزائع.

أما نقطة الانفصال بين المناطق الكلدانية والآشورية فظاهرة من ممر طبيعي في أعلى بلدة « هيت » على الفرات و « سمره » على دجلة. وهذا المرتفع من الأرض الذي يشبه شاطئ رومي لبحر عظيم كان على ما يظهر في العصور المزمزة ساحلاً حقيقياً ترتطم عنده أمواج البحر الذي يطلق عليه الآن اسم الأوقيانوس الهندي.

ولا شك في انه لما استعمر الناس هذا السهل أول مرة كان الخليج الفارسي يغمره إلى مسافة أربعين أو خمسة وأربعين فرسخاً. إذ أننا نجد الآن في مكان بابل عدداً لا يحصى من الاصداف والمحار. وكذلك نجد في مكان أبعد منه في جوف الصحراء أرضاً مشربة ملحاً.

وكل الثروة المعدنية من الحجارة الصلبة والرملية، والرخام، والحجر الاسود الصلب (basalt) والمرمر، والحديد، والرصاص، والفضة، والاليتيمون، وغيرها نجدها في المنطقة الجبلية من أرض ما بين النهرين العليا. أما سهل بابل فليس فيه شيء من ذلك، ولكن فيه منابع الأسفلت تتعرج مجاريها السوداء كالنعاين فوق سطح الرمل الذهبي حيث تتحدر بعض الأحيان في الفرات. وهاك شيء مما ذكره عن ذلك ديودوروس الصقلي :

« ومن جملة مدهشات بابل مقادير الاسفلت التي فيها والتي لا تنضب منابعها. فهي لكثرتها لا تكفي لانشاء المباني الضخمة الخشبية، بل ترى الاهالي يجمعون هذه المادة ويستعملونها بعد تجفيفها وقوداً بدلاً من الحطب »



(لينيب الجبار الاشورى)

ولكننا اذا سهل علينا أن ندرك
إمكان قيام مدن عظيمة أهلة بالسكان
في أعالي أرض الجزيرة عند منبع النهرين
الخصيب البعيد عن الجبال التي قامت
في نصف دائرة كسد منبع دون غارات
المغيرين ، فانه ليس من السهل أن ندرك
كيف أمكن حضارة رائعة أن تنشأ
وتترعرع في المنطقة القاحلة المحرقة الممتدة
من هضاب ايران الى شواطئ البحر
الابيض المتوسط حيث حدود المملكة
الكلدانية .

نعم يصعب علينا أن نهتدي الى علة
ذلك وقد اكتظت هذه المنطقة بالبلدان
العامرة وكنوز العالم القديم حتى فاقت
بابل أختها نينوى في المجد والثراء ، والرواء
والخلود ، وكادت تصبح سيدة المدن لولا
ضررتها العنيدة طيبة المصرية ، تلك
المملكة الثانية التي كان لها عرش الماضي .

على أن بابل لم تقاوم وحدها فيما مضى من القرون قوة الصحراء الهادمة التي
أدرجتها شيئاً فشيئاً في أكفانها ، فان تدمر لا تزال ترفع عن أعينها الشاحنة كفنها الرملي .
ولكن « تدمر » ، وان كانت ابنة هذه المنطقة ، إلا أن حقيقة حياتها وتقدمها
لم تفهم الى الآن كما فهمت بابل لأنها لم تشيد مثلها على شاطئ نهر .

ثم اتنا لتساءل عن المعجزة التي كانت سبباً في قيام تلك الممالك الجامعة لشتات
الأمم ، في مناطق تكاد لا تكنفى الآن لسكنى عدد قليل من القبائل الرحل .
والجواب عن ذلك سهل إذا رجعنا الى السبب نفسه . لأنه اذا كان نهر

واحد سبباً في حياة مصر ، فان طريقاً واحداً كان أيضاً السبب الذى خلق تينك المملكتين العظمتين «كلدة واشور»

ولكن هذا الطريق الذى اخترق قديماً تلك البلدان العظيمة لم يكن طريقاً عادياً بل انه كان أكبر طرق العالم القديم ، والطريق الوحيد الذى كان يصل الشرق الأقصى ومصر بأوروبا ، وينقل أهل الشرق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث كانوا يذهبون على سفن الفينيقيين القوية الى حيث شأؤوا من البلاد المعروفة حينئذ

وهكذا كانت القوافل الكثيرة لا تقطع عن هاتين المملكتين آتية من صيدا وصور ، بينما كانت السفن تنقل اليها الغلال والمصنوعات والمواد الثمينة من بلاد الحبشة ، صاعدة نهري دجلة والفرات (عن طريق الخليج الفارسي) . وعلى ضفاف هذين النهرين ، وعلى طول مجريهما فى الصحراء ، كانت حركة التجارة سبباً فى عمران تلك البنادر العديدة التى كانت بمثابة مستودعات تجارية على امتداد طريق تلك القوافل .

ولما كانت الزراعة وحدها قوام حياة مثل هذا العدد الكبير من الناس ، كانت الحاجة ماسة إلى معالجة أعمال الريّ الواسعة لا سيما فى أرض كآرض الكلدانيين يكفيا القليل من الماء ليظهر ما لها من هبات الحصب والنضارة .

على أن أهلها ما كانوا أيضاً ليضنوا بالمال أو العمل فى هذا السبيل . وهكذا كانت أرض الجزيرة القلب الذى يخفق بحياة العالم القديم . ثم انها كانت من الوجهة الجغرافية مركزاً وسطاً تجبه اليه كل العيون ، حتى صارت فى نظر القدماء مهد الجنس البشرى . ولذلك كان هذان النهران من أهم الأسباب لاستبقاء هذا المقام . ولأنهما كانا غير كافيين ، لري كل هذه الأراضى ، اضطرت الأيدي العاملة الى استيفاء ما لم تستكمله الطبيعة بتلك الأعمال العظيمة التى لا تزال تدهشنا آثارها .

ولما دالت دولة الكلدانيين والآشوريين ، فان الشعوب التى خلفتهم ، وهم الفرس والاعريق ، والعرب أخيراً ، اتفَعُوا باستخدام أعمال سلفهم ، فظلَّ لتلك الممالك شبابها القديم على رغم ما كان يمزقها من الثورات والغزوات . ولكن مركز المدينة

أخذ ينتقل شيئاً فشيئاً الى أن اكتشف « فاسكو دى جاما »^(١) (Vasco de Gama) طريقه البحرية الجديدة التي تصل بين الشرق والغرب .

ولما كان الطريق الأول البرى بطيئاً وغير مأمون ، فقد قضى عليه هذا الطريق البحرى الجديد . وهكذا أصبح طريق النقل المفضل هو إما بالطواف حول افريقيا بجزء ، أو عن طريق القاهرة فالبحر الأحمر ، إلا للقليل من القوافل التي كانت تخاطر بسلوك الطرق القديمة التي وطئها تحوتس وقييز واسكندر الأكبر .

وانقرض سكان تلك الممالك شيئاً فشيئاً ، وهبت الرمال من مضاجع السكون تثور على تلك المدن المنعزلة ولا تجد من يقاومها .

وعادت تلك الصحراء التي ذلتها القرون الماضية تبسط حجاباً كثيفاً من الرمال فوق تلك المدن التي شمت في الماضى بأنفها وهزت أعطاف العزة والسودد .

٢ - الجنس

يتعذر علينا جداً أن نعرف بالتدقيق أصل أجناس

𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹
𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹
𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹	𐎧𐎫𐎼𐎹

سكان « كدة » أو غيرها من بلدان العالم القديم .

ومهما دققنا البحث في الاكتشافات الحديثة فقد

تعرض لنا فترة تتخبط عندها في ليل حالك الظلام ، ونضطر الى الوقوف ونحن لا نرى هادياً ، ولا نبصر نوراً .

ولقد دلّ اكتشاف سر الخط الأشورى « المسماري » على انه كان في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) لغتان مختلفتان ، لجنسين مختلفين من الناس ؛ لغة نينوى الآشورية ، ولغة كدة السومارية الأكادية .

وهكذا اقتنع ظلام الابهام عن أصل سكان نينوى الآشوريين ، واتضح أنهم لم يكونوا من غير الساميين . أما الكلدانيون فان الصعوبة لا تزال قائمة في معرفة جنسهم . وقد كانوا منذ أقدم الأزمنة ينقسمون الى شعبين ، أحدهما « سومر » والآخر « أكاد »

(١) بحّار برتغالي اكتشف في سنة ١٤٩٨ طريق رأس الرجاء الصالح الموصّل الى الهند

ولأنهم وجدوا ان اللغة « السومارية الكادية » لغة مُلَزَنَة (agglutinante) ، وفيها الكثير من الشبه بلغة سكان الاورال الطائي ، ذهب الظن الى أن الكلدانيين من أصل طوراني . ولكن اتضح الآن أنه ظن بعيد عن الحقيقة ،
أولا ، لأننا مهما رجعنا الى الوصف واستنطقنا النقوش البارزة لنستحضر صورة صحيحة للكلدانيين ، لا نجد بينهم وبين الطورانيين شبا . فلم يكن لهم . على ما يظهر ، ذلك اللون النحامي ، ولا تلك الوجات البارزة ، ولا العيون المنحرفة ، بل كان لونهم أسمر ضاربا إلى السواد ، دون أن يلتبس أصلهم بالزنج . وكانوا كبار الأجسام مع رشاقة ، ولهم شعر ناعم وأنوف معتدلة ، مما يحمل على الظن انهم أقرب الى الجنس الحبشي ؛ إذا شئنا أن نوازن علميا بينهم وبين جنس آخر .

ومن جهة ثانية فإن بعض الشبه بين اللغات الطورانية واللغة الكلدانية يرجع سببه الى شيء من النقص في اللغة الكلدانية لا إلى جوهرها . حتى انها لما كانت لغة مُلَزَنَة كاللغات الطورانية ، دخلها كثير من الكلمات الكوشية .

ولدينا دليل آخر من التوراة ، وإن كان يحتمل الشك ولكن يجب أن نستأنس به أو نعتبره شاهداً على منشأ هذه الأجناس القديمة . فقد جاء في الاصحاح العاشر من سفر التكوين (الاصحاح العاشر والعدد السادس ثم الثامن) : -

« وبنو حام هم كوش ، ومِصرَيم ، وفوط ، وكنعان

» وكوش ولد غرود الذي ابتداءً يكون جباراً في الارض ، الذي كان جباراً صيد أمام الرب . لذلك يُقال كنعروود جبار صيد أمام الرب . وكان ابتداءً مملكته بابل وأرك وَاكَّذ وكَلَّة (كَلَّة) في أرض شنعار . من تلك الأرض خرج آشور وبنى نينوى » الخ .

فإذا صححت رواية التوراة لم يبق أقل شك في أن الكلدانيين كانوا اخوة المصريين الذين تناسلوا من مصرَيم : واخوة الحبشان الذين تناسلوا من فوط . وهكذا نخرج كما خرج رولنسون (Rawlinson) ، الى أن الانسانية مدينة بمحضارتها الأولى الى ذرية حام . ومن الأسف أن الغموض والتناقض ، لا يزالان إلى الآن محدقان بالمسائل المعقدة الخاصة بنشأة الأمم وأصلها .



(منظر تخييلي لسمّا كانت عليه المعابد والتصور المشيدة على أرضة بابل)
فبينما نرى ان التوراة نفسها التي جعلت الكلدانيين أولا من أقدم سكان أرض
مابين النهرين ، عادت أخيراً ، كما جاء في سفر اشعيا ، فجعلتهم مستعمرة بسيطة من
مستعمرات الأشوريين :
قال النبي اشعيا : هذه هي بلاد الكلدانيين ، التي لم تكن فيما مضى ، لان آشور
هي التي عمرتها وأقامتها لرجال الملاحه .

ومع ذلك فان هذه الرواية الثانية لا يصح الأخذ بها لعدة أسباب سندكرها .
ومما يجب التسليم به هو أن الكلدانيين من أقدم شعوب العالم . فبلادهم أخت
مصر الكبرى ، والكتب العبرية والتواتر يؤيدان أن كلدة كانت أقدم بلد
معصور ، وأنها مهد الجنس البشرى . فهناك تبليلت الألسن ، ومن هناك خرج
ابراهيم وأشور ، وهما أصل الأمم السامية .

والذي يستنتج من بعض الافتراضات الكثيرة التي عمد اليها المؤرخون
لحل هذه المسألة المعقدة هو أن بابل كانت أولا مأهولة بخليط من الأجناس يتخللهم

العنصر الكوشي ، ثم أخذ هذا الخليط يتجانس حتى طغى عليه العنصر السامي الذي كانت له الغلبة أخيراً .

ومع ذلك فليس الساميون هم أول من وضع أساس المدنات الزاهرة القديمة في أرض ما بين النهرين . فإن هذا الفضل يرجع إلى أمم أخرى اعرق في المدنيّة ، هي أمم الأكدّيين والسومريين الذين استقروا أولاً عند ضفاف نهر الفرات حيث نشروا الكتابة ، والصناعة ، ونظام الحكم ، والشرائع ، والدين وهنا تساءل ؛ من أين جاء هؤلاء الناس ؟

قال رولنسون (Henry Rawlinson) ، أنهم جاؤوا من الحبشة عن طريق البحر (الخليج الفارسي) ، ثم صدعوا في نهري الفرات والدجلة يحملون معهم كنوز الحضارة التي انتعشت وقتئذ عند أعالي النيل .

على أني لا أخطئ ، إذا جازيت ظني وذكرت أنهم اتوا جاءوا من هضاب آسيا الوسطى وهم مشربون بذكاء الطورانيين ونشاطهم

وعلى أية حال فالذي يجب ملاحظته هو أنه ، بالرغم من تغلب النسق السامي في النقوش الموجودة في ما بين النهرين ، وبالرغم من أن الممالك الكبرى التي سنتفرغ لذكرها كانت تحت سيطرة وحكم الساميين ، إلا أن الجنس السامي لم يكن العالم مديناً له بحضارة الكلدانيين والاشوريين القديمة

ويغلب على الظن أن الذين وضعوا أساس هذه الحضارة هم اخوة المصريين الأوّلين أو معاصروهم أبناء شوهور (Schesou-Hor) الذين عاشوا قبل الدولة القديمة ، والذين ، كما بلغنا عن طريق الاساطير وغيرها ، قد اختصتهم الآلهة ليكونوا أول الهداة إلى السير في سبيل التقدم ، ومن عهدهم أخذت الانسانية تتقدم بخطى واسعة وسريعة وثابتة .



البَابُ الثَّانِي

تاريخ آشور وبابل

١ - الأساطير ومصادر التاريخ

ان تاريخ آشور وبابل ، أو كلدة ، كان في هذا القرن ، كتاريخ مصر . موضع عناية المؤرخين



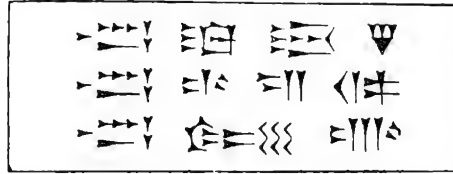
ولما حُلَّت رموز الكتابة الهيروغليفية - هذا الاكتشاف العظيم الذي هدانا إلى ماضي وادي النيل - حُلَّت بعدها رموز أخرى لا تقل عنها إبداعاً وهي الكتابة المسارية (أو الاسفينية) .

وهذه الكتابة الغريبة التي تستمد اسمها من شكلها ومن الزوايا التي تتخلل حروفها المشابهة للمسامير ، كانت كتابة الكلدانيين والآشوريين والفُرس . ولقد كانت وسيلة لكتابة لغات كثيرة ، ولذلك اعترض الباحثون فيها صعوبات أكثر مما لقيسه الباحثون في الخط الهيروغليفي .

واتفق أن بعض السياح في خلال القرون المتأخرة نقلوا معهم إلى أوروبا شيئاً من هذه الخطوط المسارية باعتبار أنها عاديّات أو طلاسّم ، ولم يخطر ببال من رآها أن لها معنى ولم يكن من اهتمام أو ميل إلى تفهمها لأن تلك الآثار كانت قليلة نادرة ، والحجارة الأثرية التي عثروا عليها في آسيا لم يكن يُظن أنها يمكن أن تزيد شيئاً على ما أخذه التاريخ العام من مؤرخي الاغريق (وتورا العبرانيين) .

ووقف الناس عند العبارات المهمة التي جاء ذكرها في التوراة ، والاساطير التي وردت على لسان هيرودوتس ، وديودورس ، وسترايون منقولة عن ستيلاز ، ولم يتقدموا قيد أنملة .

وكان ستيڤزاس هذا ، وهو طيب اغريقى فى بلاط ارتخرسيس (الثانى نيمون)
(Artaxerxes Mnemon)^(١) ، مرجع تلك الروايات البعيدة عن كل تصديق .
ولذلك لم يبق غير مرجعين وحيدين ، وان كانا مشكوكا فيها أيضاً ، وهما بعض
أوراق من كتاب لىكاهن كلدانى اسمه بيروز (Bérose) معاصر للاسكندر ، وهو
الذى كتب تاريخ الاشوريين نقلا عن المخطوطات السامرية . فكان فى هذا
التاريخ مثل مانيتون فى ما وضعه عن تاريخ مصر .



وما يؤسف له أنه لم يصل إلينا من هذا التاريخ سوى فقرات ذكرها أوزيب
(Eusebe) ويوسف وغيرهما من المؤرخين .
وبناء على هذه المراجع الناقصة ، المشكوك فى صحتها ، يمكننا أن نلخص تاريخ
أول الممالك الكبرى الآسيوية فى ما سيأتى .
فإذا رجعنا إلى أبعد مدى فى الماضى وجدنا أمامنا آثار الطوفان ، وذكريات عن
أسرة واحدة نجت من طغيانه وقد استوت فلك نوح على جبل (أارات) بارمينية .
وكذلك برج بابل ، وتبديل اللغات (اختلاطها) ، وتشتت الناس . ثم يخرج علينا
نخلة من هذا الغموض البهيم « نرود » الصياد الجبار .
وما كانت الكتب العبرية المقدسة وحدها هى التى حاكت نسيج هذه السير ،
فإن التواتر ، والاساطير وغيرها أيضاً ، نقلتها إلينا من الجزيرة والشام وبلاد العرب .
نعم إن الأسماء لم تستقر على أصلها . لانهم ذكروا اسم كزيسوسروز (Xisouthros)
بدلاً من نوح ، وإيستوبار (Istoubar) بدلاً من نرود مثلاً ، ولكن السير كانت
وما عدا ذلك منطبعة على بعضها تمام الانطباق

(١) ملك السُريس من سنة ٤٠٥ : الى سنة ٣٥٩ ق . م . الذى قتل اخيه كورش الصغير
فى سنة ٤٠١ ق . م .

ثم ان علم التاريخ ، رغم ما بلغه في أيامنا من التقدم ، لا يهدينا الى بيان دقيق عن هذه العصور الغابرة ، ولذا فنحن مضطرون الى الالتجاء الى تلك الذكريات المبهمة لنرى من خلال الحضارات الاسيوية الأولى ما كان من أمر الانقلابات الطبيعية ، والتغيرات العظيمة التي هزّت الكون ، ومهاجرة الأجناس وتفرّقها على وجه البسيطة ثم قيام الأبطال والمغامرين من الناس الذين حرّروا العالم من فوضى الهمجية بما أسسوه واكتشفوه .

ومثل أولئك الابطال في آشور وكلدّة أو مصر أو اليونان وغيرها كانوا يعتبرون كآلهة . وكل ما ذكره الأقدمون عن أصلهم متشابه ، وخلاصته ان تلك العصور عريقة في القدم عراقة خرافية ، وأنه كان يدير شؤون شعوبها أشخاص في مقام الآلهة .

ففي تاريخ بيروت^(١) (Bérose) نجد ، كما رأينا في دولة الشّوهور على ضفاف النيل ، ان مثل هذه السلالات الالهية قد حكمت الكلدانيين الأولين الذين يرجع تاريخهم الى مئات الألوف من السنين .

وما كان للملوك البشرية وجود إلا بعد الطوفان ، فقد ظلت أسرهم تحكم نحو ثلاثين الف سنة أو أكثر .

ولا يكاد المرء يفرغ من قراءة تلك القصص الاساطيرية ، ويبدأ في مطالعة ما كان يظنه التاريخ الحقيقي في كتابات هيرودوتس وديودورس وسترابون ويوسف ، وكذلك التوراة ، حتى يرى نفسه أمام حوادث تكاد لا تقل غرابة عن تلك الخزعات ، مثل انقضاء نينوس (Ninus) بجيوشه العظيمة على نصف آسيا واخضاعها وما قامت به سيميراميس (Sémiramis) من الأعمال المدهشة .

وبلى ذلك تاريخ من نسج الخيال عن هذه الملكة البديعة الحسن ، الكاملة العقل ، التي فتنت الناس ، وأخضعت الشعوب ، وأنشأت المدن التي لا مثيل لها ، وأقامت القناطر على الأنهر ، وشقت الطرق في الجبال ؛ والتي كان موتها كمولدها عجيبة

(١) بيروت اسم كلداني وضع في القرن الثالث قبل الميلاد تاريخاً شهيراً عن كلدة وعن آشور ، ولكن هذا التاريخ قد اختفى الآن .

مدهشاً . ذلك التاريخ الذى سحر العقول من خلال القرون مازال يحتفظ لها بكرامتها العتيقة على رغم الاكتشافات العلمية الحديثة التى أثبتت خزعبلات قصتها . ويستحيل الآن أن نصدق تلك الحرافات التى رويت فيما مضى عن سميراميس ، بل من الصعب أن نصدق أنه كان لها وجود وشخصية على الإطلاق . وعلى رغم افتناننا بمحققائ التاريخ ، وقبل الدخول فى تاريخ الآشوريين الوحشي ، وما كان على عهدهم من القتل والتعذيب ، لا نرانا نقوى على كبح جناح أنفسنا دون الشك فى ما رواه ديودوروس عن سيرة تلك الأميرة الغريبة ، وأن لا نترسم وجه تلك الملكة التى ، وإن كانت لم توجد فعلاً ، فإنها تركت ، ولا تزال تترك ، فى عقول الناس المفتونين بها أثراً من مجدها وعظمتها . وهاك ما رواه عنها : - « ما كانت سميراميس سوى ابنة رجل آدميٍّ من معبودة سماوية ، أرادت أن تستر زلتها عند ولادتها ، فتركها فى الصحراء حيث كان يغذيها ، سنة كاملة ، سرب من الحام . ثم التقطها الرعاة بعد ذلك فثبتت ونمت وأصبحت فريدة بين النساء فى الجمال . ولقد أبصرها ضابط آشوري عظيم ، هو مينونيس (Ménones) حاكم سوريا ، فشغف بها وتزوج منها . وبعد قليل رافق هذا الضابط ملكه نينوس (Ninus) فى حملة على بقطريانه (Bactriane) ، فأخذ سميراميس معه ولكن الملك وجيشه وجدوا مقاومة شديدة عند أسوار مدينة بقطرة (Bactres) حتى تراءى له إستحالة الاستيلاء عليها .



(صورة تقديم الهدايا)

وانقد لاحظت سميراميس ان كل الهجمات كانت موجهة إلى الجانب المشرف

على السهل ، والى الجهات الأخرى الغير حصينة ، بعكس القلعة التى لم يهاجموها مطلقاً نظراً لموقعها الحصين . ولأحظت أيضاً أن حراس القلعة أسرعوا الى ذلك الجانب لاسما ف اخوانهم عند الحصون الخارجية المنخفضة . فبادرت وأخذت معها نفراً من الجنود المعتادين تسلق الصخور والاسوار ، ثم انسلت من طريق وعر الى ناحية من تلك القلعة ودخلتها . ثم أعطت إشارة متفقاً عليها إلى القوة المهاجمة فى الجانب الآخر ، وكانت بعض نقط الدفاع فيها ضعيفة ، فارتاع المحصورون من ضياع القلعة وولوا الادبار قانعين بالسلامة . وهكذا سقطت هذه المدينة العظيمة فى يد الأشوريين

ولقد أعجب الملك بيسالة سميراميس فغمرها بالهدايا . ولكنه شغف بها حباً فطلب الى زوجها أن ينزل له عنها فيزوجه بابنته سوزان . غير أن مينيوس أبى أن يرضى بهذه المبادلة ، فهدده بأن يققاً عينيه إذا لم يذعن لأرادته فى الحال . وهكذا أثر فيه هذا التهديد والحزن فشنق نفسه . أما سميراميس فتسمنت عرش الحكم بعد موت الملك نينوس ، الذى يظن بعض المؤرخين أنه كان يتدبيرها ، وهكذا أصبحت ملكة آشور المطلقة . فشرعت فى اجراء اصلاحات عظيمة ، التى لو كانت تمت لفاتحت الاصلاحات التى أجراها أعظم الملوك .

وأتست فتوحاتها من صحاري ليلية الى شواطئ الهندوس . وشيدت مدينة بابل وأحاطتها بسور منيع فى نصف دائرة ، لا يقل طوله عن ثلاثمائة وستين ستاداً (عبارة عن ستة وستين كيلومتراً) . وكان هذا السور على مناعته عريضاً بحيث كان من السهل أن تجرى فوقه ست مركبات بعضها بجانب بعض .

أما فى الداخل فقد أنشأت على نهر الفرات قنطرة من خشب الارز والدرو ، يبلغ عرضها نحو ثلاثين قدماً . ثم أقامت على ضفتيه الأرصفة بعرض ذلك السور . وشيدت عند طرفي تلك القنطرة قصرين شاهقي الارتفاع ، يصل بينهما نفق تحت النهر بحيث يمكنها أن تنتقل من أحدهما إلى الآخر دون أن تضطر إلى عبور النهر .

ثم انها أقامت فى وسط المدينة هيكلاً فخياً للاله بيلوس ^(١) (Bélus) الذى كان الاغريق يخلطون بينه وبين إلههم جوبيتر (الاله الآلهة)

(١) ابو زوجها الملك نينوس ، كما ورد فى اساطير الاشوريين

أما الحدائق المعلقة ، إحدى عجائب الدنيا السبع ، المنسوبة في بعض الروايات إلى سميراميس ، فقد ذكر ديودوروس أنها من عمل أمير من نسل هذه الملكة أنشأها لزوجته الفارسية على مثال آكام ومروج بلاد فارس المكسوة بالخضرة .
على أن هذه الأعمال الرائعة لم تُحل بين سميراميس وبين ملاهيها ، فلم تنسَ ما كانت عليه من الجمال الباهر

ولقد قال ديودوروس أنها أحجبت عن الزواج الشرعي حتى لا يقلت من يدها صولجان الحكم . غير أنها كانت تختار للذئب أجمل رجال جيشها ، حتى إذا قضت منهم لبانتها أعدمتهم

أما نهاية سميراميس فقد أحاط بها الغموض كما أحاط بنشأتها . فقد اختفت فجأة من الوجود . وفي أسطورة ، استحات إلى « حمامة » ، حتى أن الاشوريين أخذوا يقصدون هذا الطائر لهذا السبب .

وقد ذكر ديودوروس أن بابل لم تكن المدينة الوحيدة التي شيدتها سميراميس ، بل أنها شيدت مدناً أخرى كثيرة ومن ضمنها مدينة اكباتان (Ecbatane) التي اختارت لها بقعة تروقها

وربما كان ما أمرت هذه الملكة العجيبة بأن يُحفر على قبرها لا يقل في الاهمية عن بقية أعمالها العظيمة وهو : -

« ان الطبيعة خلقتني امرأة ، ولكن أعالي ساوتني بأشجع الرجال . فلقد جلست على عرش نينوس الذي يمتد ملكه شرقاً الى نهر هينامانيس (Hinamanès) ، وجنوباً الى بلاد البخور والمر ، وشمالاً الى حدود بلاد الساس (Saces) و سوجديان (Sogdiane) . ولم يتبع لاش-وري قبلي أن يرى البحار ، أما أنا فرأيت منها أربعة لم يخترعها أحد بعدها . وجعلت الانهر تجري حيث أريد ، في كل مكان نافع ، فأصبحت الارض كثيرة الخصب . وكذلك أنشأت القلاع والحصون المنيعه ، وشققت مجديدي في الصخر طرقاً ومسالك لركبائي لم تقع عين حي ، حتى الحيوانات المفترسة ، على مثلها »
« ومع ذلك لم تمنعني هذه المشاغل من أن آخذ قسطن أيضاً من اللهو والحب »
واذا كنا قد وقفنا قليلاً عند هذه الرواية التي أصبحت الآن أسطورة لا يقبلها



(جِئِي آشوري مجَّح)

التاريخ ، فلا أنه لا يمكننا الكلام على آسيا القديمة قبل أن نلقي نظرة عاجلة على هذه المرأة العجيبة .

ولقد ظلت بابل سيدة آسيا الوسطى ، تشبه في الحقيقة تلك المرأة ، التي روت الأساطير انها هي التي شيدتها ، حتى انها كانت مثلها متكبرة ، شموانية ، شديدة الطمع والقسوة ، مولعة بجمال الفن وجلال الأعمال ، تواقفة الى قبر الطبيعة وحكم الناس . فبابل ، كسميراميس ، دفعت مثلها الأنهار تجري حيث كانت تشاء ، ومثلها أقامت الحصون والقلاع والاسوار ، وشقت الطرق في الصخور . وحاكتها في كل شيء ، حتى في الغموض الذي ران على نشأتها ونهايتها ، فلم يتمكن أحد من معرفة العصر الذي شيدت فيه . ولا اليد التي وضعت حجر أساسها .

وهاهو الشنف البشري يدفع الناس الآن عَبَثًا الى رفع هذا الكفن الرملي عنها ،
ولكنهم لم يقفوا بعد على سر عظمتها ومجدها الا على وجه التقريب .
ان سيرة سميراميس لم تخل من معنى . وهبها كانت خرافة ، فاننا لانملك اغفال
الكلام على صورتها المهيبة التي خلدها التواتر ، وجعل لها حياة أبقي من حياة كل
الملوك الذين صاغ لصالحال ما بين النهرين تماثيل وجوههم الحجرية . وهي ما زالت ، وستبقى
الى الأبد صامته خرساء ،

ومن الصور التي أعقبت سميراميس وتقلتها النيا الاساطير صورة سارد نابلال
(sardanapale) الشهواني الخنث ، وسنحاريب (Sennacherib) الذي يروى أن
ملكاً من ملانكة الله أفنى جيشه ، ونبوخذ نصر (Nabuchodonosor) الذي قضى
عليه كبر يائه أن يمسح في صورة دابة ترعى عشب الحقول ، وبلشاصر (Balthazar)
الذي خيل اليه أن يدأ خفية أخذت تخط امامه كلمات مُرعبة مخيفة ^(١)

على أنه لم يبق لدينا إلا القليل من هذه الأساطير كلها ، بعد أن عم الحفر سهول
الفرات ودجلة ، وهذان إلى بعض حقائق وتواريخ ممالكها القديمة ، بفضل العقول العاملة
الجبارة التي وفقت إلى حل رموز ما كشفوه من الآثار .

وكان أول هؤلاء العاملين إفرنسياً هو المسيو اميل بوتنا (قنصل فرنسا في الموصل) .
فانه في سنة ١٨٤٣ كان له شرف اكتشاف قصر اشوري مدفون تحت الرمل ، ظهر انه
قصر سارجون الثاني (sargon) الاكادي القريب من المدينة المعروفة الآن باسم
خورزباد (Khorsabad) . ولقد انقضت تحت معاول الفعلة اجزاء مهمة من طلاء
الجدران كانت مغطاة بنقوش بارزة بدية ، وكتابة لم يفهم لها معنى الى الآن .

وكان بوتنا يحسب انه بهذا الاكتشاف قد وفق الى كشف الستار عن نيتوى ،
ولكنه كان مخدوعاً وان كان هذا القصر قريباً (١٤ ميلاً) من أطلال تلك المدينة القديمة
واسوء حظه حالت السياسة بينه وبين مواصلة مساعيه ، لان ثورة سنة ١٨٤٨
اضطرتته الى العودة الى بلاده ، فخلفه انكليزي هو المستر لا يارد الذي كان له فضل
الاهتداء الى عاصمة آشور ، التي ظلت زمناً طويلاً سيدة آسيا كلها .

(١) سفر دانيال (من التوراة) الامتاح الخامس والعدد الخامس وما بعده .

ومن ذلك العهد سارت أعمال الحفر سهيراً حيثاً في جنوب وشمال الجزيرة (ما بين النهرين) ، فهدتنا الى قصور شامخة بديعة ، وفرتنا الى ذلك العهد مجهولاً ، ودور كتب كاملة ، قام الآجر فيها مقام الرق والبردي ، وكلها شواهد على أن مدينته راقية سبق أن ازهرت في تلك السهول التي أصبحت مقفرة الآن .

وهناج هذا النجاح طمع انكلترة ؛ فواصلت جهودها في البحث والتنقيب ، حتى أصبح المتحف البريطاني يملك الآن من هذه الآثار مجموعة نادرة لا مثيل لها في المتاحف الأخرى

ومع ذلك لم يكن هذا كل شيء ، فإن تلك الآثار الخطيئة العظيمة ، وما حوته من أسرار الأمم الغابرة ، ظل لغزاً من الألغاز زمناً طويلاً .

وكاد الأمل يخيب من حل رموز هذه الخطوط المسماة ، الخالصة لغيرها من الخطوط ، والتي هي مفتاح لغات لم تنطق بها شفة من قرون عديدة . وتلك الألغاز التي كان يُظن أنه لا يمكن أن يكشف اللثام عنها بغير معجزة من معجزات العلم . وقف أخيراً على كفيها علماء موقفون أمثال جروتفند ، وبورنوف ، ولانسين ، ورونتسون ، وأوبرت الذين بفضل عبقريتهم ، ولقائهم وجلدهم ، وتضحياتهم وضعوا



(معبود آشوري برأس بشري وجسم أسد)

في أيدينا مفتاح الباب الذي ندخل منه الى مجاهل ذلك التاريخ وتلك الحضارة التي كان يحوم الشك حول وجودها .

فلم يصعب بعد ذلك الوقوف على ماضي الكلدانيين والاشوريين البعيد ، لانهم هم أنفسهم الذين تكفلوا بأن يقصوا علينا أخبار حروبهم ، وأعمالهم ، وخطاباتهم ، ومغامراتهم ، واكتشافاتهم ، وأحقادهم ، وحبيهم ، وآلامهم ، وأفراحهم .
نعم ان الصحائف التي تركوها لنا لم تُحل رموزها كلها الى الآن ، ولكن المستقبل كفيل باماطة اللثام عنها . وما في أيدينا منها كاف لأن يبعث هذه الأمم البائدة من قبورها ؛ وهو ما سنعالجه في الصفحات التالية (ان شاء الله) .

٢ - ممالك ما بين النهرين الرابع

إن سكان ما بين النهرين (أرض الجزيرة وغيرها) الأقدمين ، قمان : الكلدانيون وعاصمتهم بابل على نهر الفرات ، والاشوريون وعاصمتهم نينوى (على نهر الدجلة)
أما تاريخهم الذي اتفق على انه يبدأ منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، فينقسم الى أربعة عصور ، كانت في خلالها كل عاصمة من تلك العاصمتين لها الارحية على الاخرى .
وهذه العصور هي : -

١ - عصر الامبراطورية الكلدانية الاولى ، ويبدأ منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، وينتهي في القرن الثالث عشر قبله

٢ - عصر الامبراطورية الاشورية الاولى ، من عهد غير معلوم ، الى الف سنة قبل المسيح

٣ - عصر الامبراطورية الاشورية الثانية ، من منذ الف سنة ، الى سنة ٦٢٥ قبل المسيح

٤ - عصر الامبراطورية الكلدانية الثانية ، من سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٣٣ قبل المسيح

ولقد كان المقياس الذي امكن به الوصول الى هذا التقسيم هو تغلب احدي العاصمتين على الأخرى كما سبق الكلام . فكانت الغلبة احياناً للملك نينوى وأحياناً

الملوك بابل . ولكن جوهر التاريخ من حيث ذكائهم ومدنيّتهم وفنونهم واحد ، حتى ان أجناسهم ولغاتهم انتهت بأن امتزجت بعضها ببعض ، فأصبح من الصعب الاهتداء إلى أصل جنس كل منهما ولغته ما لم يُرجع في ذلك إلى أبعد العصور .
على ان بابل لم تتفوق إلا من حيث التهذيب العقلي ، أما نبؤى فكان تفوقها بقوة جيوشها

وكان الكلدانيون أعرق الناس في المدينة ، ومنهم أقبس جيرانهم قواعدها وأساليها . أما رطائهم فكانت « السومروا كادية » وظلت هذه وقتاً طويلاً اللغة المقدسة التي يتكلم بها أهل ما بين النهرين .

وكثير من النصوص المكتوبة بهذه اللغة عُني الاشوريون بترجمتها والمحافظة عليها .

واعتاد الاشوريون أن يكتبوا باللغتين معاً ، فكانت اللغة القديمة تظهر إلى جانب رطانة نبؤى حتى أصبحت هذه الرطانة هي المتداولة في كل وادي دجلة والفرات .
وكان همّ الساميين في آشور منصرفاً في أول الأمر إلى الحروب والغزوات ، حتى ان آسيا القديمة كانت دائماً عرضة لحملات الملوك النبئيين ، وهكذا لم تخل شوشن^(١) وبابل وارمينية وفينيقية وسورية وفلسطين وشمال بلاد العرب من حكم تغلث فلاصر (Teglathpalazar) وسرجون وسنحاريب واشور بانتيال .

وما كان هؤلاء المغبرون الغلاظ القلوب يبتعدون حتى تهب تلك البلاد المقهورة الى رفع رأسها واسترداد استقلالها وهي تحسب نفسها بعيدة عن متناول أيديهم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يعودون فينقضون على العصاة ويسومونهم أشدّ العذاب والتكليل ، ويمثلون بهم أفبح تمثيل ، كما هو مذكور في آثارهم بكل تفصيل ، كأنما كانت تلك الأفعال من بعض أسباب الفخار والمجد .

(١) وبالفرنسي Susiane او Susa او عيلام Elam وهو اسم بلاد كانت في جنوب ما بين النهرين عند رأس الخليج الفارسي ، وتحدّها شمالاً اشور ، وغرباً بلاد فارس . وعيلام ايضاً اسم اكبر أبناء سام . وشوشن ايضاً اسم اقدم مدنيّ الترقى (راجع دانيال ٨ - ٢) وتكويز ١٠ - ٢٢ وارميا ٤٩ - ٣٥)

ولا تختلف وحشية الآشوريين عن توخُّس اليهود في تاريخ البشرية. فقد كانت أسوار مدنها تُزَيَّنُ برؤوس قتلى حروبهم وغزواتهم ، وجلود أسرارهم المسلوخة عن أبدانهم وهم أحياء . وكان ملك نينوى يضحك ويلهو بما تقشع من هوله الابدان ، مثل منظر الصفوف الطويلة من السماء الذين كانوا يعانون سكرات الموت فوق الخوازيق . وظلت عصور الدول الأربع على هذا النحو من عصيان يعقبه غزوات تتجدد فيها هذه المجازر والفظائع .

وإذا كان الآشوريون لم يتركوا مخطوطات أو مبتكرات فنية أو آثاراً تدل على مدنية زاهية ، فإن كلمة واحدة (ههجيّة) تكفي لوصف عصرهم الأرجواني ، ثم ندعهم بعد ذلك ينامون إلى الأبد في مجدهم الوحشي الدامي .

وقد لا نلام إذا وافقنا مسيول نورمان على قوله : « ان الههجيّة خير ألف مرة من مدنية كهذه » ومع ذلك لا يسعنا إلا الاعجاب بالجمال الفني الذي ينعكس من تلك النقوش الباردة ، ومن مهارة الأيدي التي نقشتها ، لأن عيوننا تقف مبهورة أمام بقايا قصور الآشوريين . وتزداد دهشة حين نفكر في أن الانسانية مدينة لوحشية تلك العصور العاقلة ، بما أفاضت عليها من نعم العلوم وحسنات الفنون ، التي ابتكرتها عقول هؤلاء العاقرّة .

وربما كان العامل الوحيد الذي رفع تاريخ نينوى الى مستوى أخم المآسي هو مزاحمة مصر لتلك المدينة الآسيوية العظيمة . لأننا نرى اسرة تحوتمس تتقدم حتى نهر الفرات ، ونرى سنحاريب واشور إنايال يهبطان وادي النيل حتى طيبة .

ومن جراء هذا الصراع استهدفت الأمم التي بينهما للغزو والسحق (كأنها بين كفي الرحى) ، حتى اضطرت سورية وفلسطين أن تحالف إحدى هاتين القوتين العظيمتين لتتحرّر من نير استعباد الأخرى ، ولكنهما في الحقيقة كانتا تخرجان من حكم لتدخلتا تحت حكم آخر ، وتطلّان عرضة لعداوة الدولة الاخرى ، حتى أن قائد سنحاريب كان يقول لضباط ايزنجياس (Ezechias) :

« على من تتكلمون في مقاومتي ؟ فهل أخذتم عهداً من ملك مصر على مظاهرتكم . انه كالفصبة المروضه تخرج يد من يتوكأ عليها ولا تجديه فتيلاً »

ولقد كان طريق مجدثو (Mageddo) مفتاح النيل الوحيد الى الفرات . وهو طريق مرت عليه القرون كما مر عليه فرعون وملك نينوى والنصر يعقد فوقه تارة لأحدها وطوراً للآخر . وكَم من المواقع استمرت نارها حول هذه القلعة ، وكَم من المرات امتلأ هذا الطريق بجثث القتلى .

ولا تعرض هنا للذكر تفاصيل هذه الحروب ، لأنها أصبحت معروفة بكل أطوارها وتواريخها وأسماء قوادها ووحدات جيوشها ، وأحوال النصر والهزيمة التي مرت بها . كل ذلك وجد مخطوطاً بفضل ذكاء آشور العملي وعنايته ونظامها وإن كان نظاماً خشناً قاسياً . فقد أنشأت ترتيباً خاصاً للغداح ، وأفردت سجلات وافية لأنواع التعذيب والتكيل .

على أن هذه البيانات كان الى جانبها كثير من اللعنات مستنزلة غضب الآلهة وسخطهم على كل من عيس شواهد عظمة نينوى وانتصاراتها بسوء .
واليوم قد نفقت هذه الآثار عنها ثوب الاحتجاب ، ولاحت لنا رائعة في وضوح النهار بفضل ذلك الأجر السليم الذي كان دفيناً في بطون الرمال . وهو أكبر معين لنا على نشر أخلاق أولئك القوم الذاهبين وفنونهم وعلومهم وحياتهم وخواطرم . وفي ما يلي نوجز الكلام على الحوادث الرئيسية التي لها علاقة بهذه الدول الأربع .

الامبراطورية الكلدانية الأولى

﴿ من سنة ٤٠٠ الى سنة ١٣٦٠ قبل المسيح ﴾

ليس لهذا النعت بالامبراطورية « الكلدانية الأولى » التي تشمل الستة وعشرين قرناً الأولى من تاريخ كلداء أقل قيمة تاريخية . وعبئاً تقضي الوقت في معالجة الآراء التي لدينا عن موضوع كهذا بالتبديل ، لأنها ليست بذات أهمية بالنسبة الى تاريخ الحضارة . وحسبنا القول انه لم توجد قط امبراطورية كلدانية أولى ، وإنما كانت مجموعة ممالك كلدانية . وكل ما نعلم عن هذا العصر من المخطوطات التي وجدت إلى الآن يدلنا على أن هذه البلاد كانت منقسمة الى ولايات مستقلة ، وأُسُرم متناحرة لا تتقطع من بينها الحروب ، وكانت كلها سجالاً . أما تأسيس امبراطورية كلدانية



(صورة تخيلية عن وليمة من ولائم اشوآبانيال)

متجانسة فلم يخطر قط ببال ولاية من تلك الولايات ولا أسرة من تلك الأسر .
ولذلك كان هذا العصر السحيق الذي نكتب عنه إنما هو صورة من انحصار الحكم
في أيدي أشرف كلدّة (نظام الاقطاعات) . ولقد سبق هذا العصر عصور الملوك
الفانحين في الشرق القديم كما في الغرب الحديث .

نعم ان معرفتنا قليلة عن ممالك الكلدانيين الأولى التي تتصل بعهد غرود
الأساطيري ، حين كان قادة بابل وغيرها مستقلين يحملون اسم باتيزي (Patesi) ،
أي القساوسة أو الكهنة الملوك .

على ان بعض آثارهم ، والحجارة الناطقة بما عليها من الخطوط والقوش ، هي
التي هدتنا تقريباً إلى ما بقي من ذلك العصر الطويل ، وكلها يدل على ان الكلدانيين
كانت لهم مدينة زاهرة رائعة ، قد تعادل تلك التي كانت تتألق وقتئذ فوق ضفاف
النيل ، وان ملوكهم كانوا يشيدون لها كل العظيمة في تلك العصور العريقة في القدم
وأول ملك هدتنا اليه تلك الآثار هو الملك ساروكينو (Sarrukinu) ،
أو سرجون القديم (الأكادي) . كان متسلطاً على أكاد (Accad) وغزاسومر ،
وشيد في اجادى (Agadé) ، عاصمة ملكه ، معبداً شامخاً بقي نحو ثلاثة آلاف سنة ،
ورمه من بعده نابونيد (Nabonid) أحد ملوك بابل المتأخرين .

وهذا كان الدليل الأخير الذى بنينا عليه حكماً بأن الملك السالف قام سنة
٣٨٠٠ قبل الميلاد . لأن نابونيد قال في ما نقشه على أحد الاسطوانات الصلصالية
التي وجدت مطمورة في جدران هذا الهيكل الذي رمه ؛ ان أعمدة هذا الهيكل
لم يرها أحد منذ ٣٢٠٠ سنة . وقد عاش نابونيد قبل المسيح بخمسمائة وخمسين
سنة ، وبناء عليه يكون قد مضى على هذا الهيكل ٣٨٠٠ سنة .

على ان ملوك الكلدانيين الذين كانوا من أربع الميادين للعدن والمعابد كانت
لهم كذلك لغة راقية وأسلوب كتابي مُتَقَن ، حتى ان أقدمهم وهو ساروكينو ، السالف
الذكر ، وضع في اللغة « السومراوأكادينية » مؤلفات في السحر والعرافة . ولقد
ترجم آشوربانيبال ، آخر ملوك نينوى ، هذه المؤلفات بعد تأليفها بنحو ثلاثين قرناً .

ثم ان الذر اليسير الذي نعلمه عنهم يدل على ان عصرهم سبق بزمن قصير عصر

بناء الاهرام المصرية . وان هذه المنطقة من المعمورة كان لها مدنية راقية منذ أقدم الازمان . ومع ذلك فان آثارها لا تسمح لنا ، لسوء الحظ ، أن نتجاوز الحد الذي وقفنا عنده في الكلام عليها .

ولقد ظلت الأسفار صامتة عن هذه القرون الستة والعشرين حتى اكتشفت المخطوطات المسمارية القديمة فحزجت عن وجهها النقاب ، وأرثنا ان كلدنة كانت منقسمة إلى عدة أسر ، وذكرت لنا أسماء بلدانها الشهيرة « كأريدو » التي كان لها هيكل فخم لم يبق منه الآن غير كومة من التراب لا يزيد ارتفاعها عن ستين قدماً ، وكبير تلالا (تل - لوه) التي عثر فيها « سيورسارزيك » على مجموعة نفيسة من تماثيل بلاروؤس محفوظة الآن بمتحف اللوفر . « وأور » وطن ابراهيم الخليل التي كان لها ملوك قبل المسيح بأربع وعشرين قرناً .

ومن أكبر حوادث هذا الدهر الذي دام ستة وعشرين قرناً حادثة تركت أعمق أثروهي اغارة العليبت (elamites) أنحجام بيروز) الذين انحدروا من شرق دجلة وجعلوا عاصمة ملكهم شوشن (Susa) قبل الميلاد بألفين وثلاثمائة سنة ، حيث نقلوا الى هياكلها تماثيل الآلهة ، مثل آلهة « نانا » التي أخذوها من هياكل الكلدانيين . ولكن « آشور بانيبال » استردها بعد ذلك بستة عشر قرناً .

ونحن نعلم ان هذا الفاتح استولى على شوشن قبل المسيح بستماية وستين سنة . وانه ذكر في كثير من مخطوطاته ان تلك التماثيل التي استعادها ظلت في الهياكل الأجنبية نحو الف وستماية سنة . فيرى من ذلك ان تلك الأغارة يرجع عهدها إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد . وبمثل هذه الطرق المتتوية تمكنا بكل مشقة من تعيين بعض تواريخ هذا العصر الغامض المضطرب .

وتلا تلك الغارة غارات أخرى . وكانت كلدنة مقسمة إلى عدة ممالك صغيرة فكان ذلك سبباً لوقوعها أخيراً فريسة للغزاة الأجانب . ومن المخطوطات التي عثرنا عليها عرفنا أن ملك الكلدانيين استمر إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، حينما سقطت كلدنة تحت سيادة بنبوى .

وإلى الآن لم يُعرف كيف كان هذا السقوط . فقد بسم الحظ لأشور وتعلّبت على سائر المدن وخضعت آسيا السلطنة سيد واحد .

الامبراطورية الاشورية الاولى

﴿ من عهد غير معلوم الى ١٠٢٠ سنة قبل المسيح ﴾

ان اسطورة نينوس وساميراميس ربما كان محلها صدر هذه الدولة ، ولكن حلقات التاريخ الاشوري لا تذكر عنها شيئاً حتى ولا بطريق الاشارة . ولعل هذه الاسطورة من مخترعات بلاط الفرس حيث التقطها ستيرياس .

وكان يرى الآشوريون ان الاله آشور هو مؤسس دولتهم وان عاصمتها الاولى كانت الأصرّ المعروفة الآن بقلعة شرغات ، وظلت كذلك طول عهد هذه الامبراطورية ، ولكن صدر هذا العهد كان غامضاً مجهولاً . وخلاصة ما يعلم عنه ان مصر في غرضونه بلغت أوجها من القوة الحربية ، حتى ان تحتمس الاول وصل الى كاركميش . وان تحتمس الثالث فرض على ملك «الأصرّ» خراجاً يدفعه اليه . وان أننجوب الثاني استولى على مدينة نينوى ثم عبر نهر دجلة .

ولقد ظهر على أثر ذلك أول وأكبر الملوك الفراء الذي أعاد الى آشور مجدها العظيم . وهذا الملك كان اسمه « تغلاث فلاصر الاول » ، وكان لا يقل عن غرود همّة وقوة وبأساً ، فأخضع نحو اثنين وأربعين شعباً .

ولكن الآثار الحجرية المنقوش عليها وصف فتوحاته وقبوتيه لم تذكر شيئاً عن خاتمة ملكه . ويظهر ان بابل ، المدينة الكلدانية التي أخضعها ، عادت فاستردت ما كان لها من الحرية والمقام . وهكذا أصبحت آسيا ميداناً لحروب يتنقل حظ الغلبة والعظمة فيها بين آشور وكلد .

ويعد « تغلاث فلاصر » (Teglathphalazar) أول وأشهر ملوك الدولة الاشورية . ولم يحفظ لنا التاريخ الا أسماء بعض أسلافه من الملوك ، وفيما عدا ذلك ألبسته الايام نوباً من الخفاء والغموض استمرّ طويلاً الى ان عاد الى الظهور حينما ظهرت الأسرة الجديدة وأسست الامبراطورية الاشورية الثانية التي ظلت عاصمتها سيدة بلدان آسيا .

الامبراطورية الاشورية الثانية

من سنة ١٠٢٠ الى سنة ٦٢٥ قبل المسيح

منذ نشأة الامبراطورية الاشورية الثانية هُجرت مدينة « الاصر » عاصمة اشور القديمة ، واتخذ الملوك مدينة « كالح » (Kaliah) بدلا منها لاقامتهم .
وهذه المدينة (كالح) التي حملها أولئك الملوك كانت واقعة على نهر دجلة عند ملتقاء نهر الفرات العظيم ، أمّا الآن فاسمها « نمرود » وقد ظهر من أعمال الحفر المستمرة فيها انها حافلة بالعاديات والآثار القديمة .

ولم تحافظ كالح على مركزها كعاصمة الامبراطورية إلا وقتاً قصيراً لأن « آشور ناصر بال » ثامن أو تاسع ملوك الامبراطورية الثانية استبدل بها نينوى ، وكان أول ملك في عصره عاد الى فتوحات أسلافه الاقدمين .

وهكذا أخذت هذه المدينة التي لا تحصى موارد غناها وثروتها ، والتي ذكرها النبي ناحوم ، تنمو وتوسع حتى أصبحت سيدة بلاد الشرق ، وبزّت ضربتها المصرية الشائخة « طية » .

ولقد كان ظهور هذه الامبراطورية الثانية فاتحة عهد جديد لتحديد تسلسل سنوات التاريخ ، وذلك لأن الاشوريين كانوا يطلقون على كل سنة اسم الموظف العظيم البارز فيها ، وهكذا كانوا يُسمّون أول سنة من سني حكم كل ملك باسمه .

ولقد كان « آشور ناصر بال » أعظم الملوك الذين جمعوا بين الفتوحات وإقامة الآثار . فانه دوّخ كل البلاد التي كانت على جانبي مجرى الفرات الادنى والمتوسط ، وفتح بابل ، وغزا سورية وفينيقية ، حتى ان مصر كانت تهابه وتحاول مرضاته . وقد أكره كل ماضيه الى ملكه على إطاعته والخضوع له .

وحذا حذوه « شلنأصر الثالث » فكان لا يكف عن الحروب التي هي من أعمال الاشوريين . وهكذا كانت نينوى لا تنتهي من حرب إلا لتنتهي لحرب أخرى ، لأن الممالك الخاضعة لها كانت كلما آنت فتوراً في نشاطها الحربي ثارت ضدها وتألبت عليها ، خصوصاً بابل التي كانت لا تخضع لنينوى إلا مكرهة مرغمه .

وخلفه بعض الملوك الذين لم يكونوا على شاكلته ، فضممت هبة نينوى في عيون الحاضرين لها وكان من جراء ذلك (على رواية اغريقية) أن هبّ اثنان جريثان أحدهما فارسي اسمه ارباس (Arbace) ، والثاني بابليّ اسمه (Belésis) بيليزيس وجمعا عدة قوات من الكارهيين المتذمرين وحاصروا بها عاصمة آشور .

وظن سارونابال ملكها الشهواني المتهتك أنه في مأمن وراء أسواره المنيعه ، متكللاً على ما ذكره له العرافون من أنه لن يكون في خطر إلا إذا كان النهر أيضاً من جملة الثائرين عليه . ولكن حدث بعد ثلاث سنين ان هطل المطر غزيراً ففاض دجلة فيضاً لم يسبق له نظير ، وفتح في سور المدينة ثغرة دخل منها المحاصرون ، فمض الملك يدافع ويكافح حتى إذا بنس تقهقر إلى قصره هو وأزواجه وأولاده وحاشيته وكنوزه ثم أشعل فيه النار ، على ما جاء في الاساطير الاغريقية .

على أن هذا الأقول الذي أصاب نجم نينوى لم يلبث أكثر من نصف قرن ، فلم تأت سنة ٧٤٥ ق . م حتى تبوأ عرشها ملك عظيم همام هو « تغلاث فلاصر الثاني » ، فعاد اليها عهد الانتصارات الحربية الأولى ، وأصبح الجيش قبله أهلها يبالغون في تكريمه وتعظيم شأنه . وبعد موت هذا الملك و وفاة « شامناصر الخامس » بعده بلا عقب ، وآتوا عليهم أكبر قوادهم ، سرجون ، الذي أسس أسرة جديدة كانت من أكبر الاسر الغازية في العالم ، فأخضع كل الممالك القديمة التي كانت تابعة لنينوى وضمها الى دولته من جديد ، وأضاف اليها مملكة إسرائيل ، وجزيرة قبرص ، وفلسطين ، وأرمينية ، وجزءاً من بلاد فارس .

ولكي يخلد الى ما شاء الله ذكرى حكمه المجيد شيد قصره الفخم الشهير باسم خورازاباد ، وهو أول قصر اهتدى معول « بوتاً » الى اكتشافه حوالي سنة ١٨٥٠ أما « سنحاريب » و « اسرحدون » - من سنة ٧٠٤ الى سنة ٦٦٧ قبل المسيح - فقد بذلا جهدهما في المحافظة على هذا الملك الواسع الذي كان الضعف يتغلغل في طيأته لانعدام التجانس والتآلف بين شعوبه .

وشهر سنحاريب الحرب على حزقيا ملك يهوذا ، ثم انحدر الى مصر حيث ضرب خيامه أمام « بيلوز » (Péluse) ، ولكن كارثة ظلت مجهولة الى الآن اضطرته الى التقهقر

والتعجيل في العودة الى بلاده آشور حتى اذا بلغها لقي حتفه على يد أبائهم أنفسهم .
وكان حفيده آشور بانيبال هماماً فرجع نينوى الى ذروة قوتها ومجدها وكان أول ملك
دوخ مصر كلها ولو وقتاً قصيراً واتقم من طيبة بمثل ما انتقم تحوتس من نينوى فيما سبق .
ويظهر ان الحظ أراد أن يخدم هذا الملك فيمحو عن أرض ما بين النهرين عار
الحروب الماضية ، لاسيما التي شبرها العيلاميون على بابل . فتابع فتوحاته حتى شوشن
فاستردها بعد أن ظلت في يدهم من سنة ٦٦٠ قبل المسيح ، كما استعاد آلهة
الكلدانيين الذين نهبوا من ستة عشر قرناً .

ولم يكن هذا الملك القوي غازياً فاتحاً فحسب بل كان أيضاً محباً للعلوم والفنون ،
فرجع منارها ، وأتم بناء قصر سنحاريب في نينوى حيث كان الفن الاشوري قد بلغ
أعلى درجات الاتقان ، ثم جمع مكتبة عامرة يتحفن الآن علماء اللغات القديمة
بالشيء الكثير من فيض كنوزها .

وهذا العهد الذي بلغت فيه نينوى قمة مجدها كان أيضاً فاتحة العهد الذي سقط
فيه صولجانها ، فاضمحلت تحت حكم ابن آشور بانيبال نفسه .
وكانت امبراطورية أخرى فتية قد نهضت في الشرق ، هي امبراطورية
« مادي » ، وباتحاد ملكها سياجزار مع بابل ومصر تمكن من قاب هذه العاصمة التي
طأطأ العالم رأسه أمامها قروناً طويلة .

وكان سقوط نينوى سريعاً وتاماً . ولا غرو فان الحروب المتوالية أنهكت قواها فجعلتها
عبارة عن بناء شامخ واهي الاساس . فلما سقطت لم تستطع أن تنهض من سقطتها .
على ان هذه السكارة الشهيرة ، الوحيدة من نوعها في تاريخ العالم ، ظلت مودعة
أطباق الغموض الحزن . ولم يستطع مؤرخ قط أن يوقفنا على تفاصيلها ، كأن نينوى
بعد أن انحلت وانسدل عليها ستار النسيان اختفت مرة واحدة من وجه الارض ،
الى ان قام معول المكتشفين يزعج رفاتنا في قبرها .

ولم يكن لدينا لمعرفة الاسباب الحزنة التي قضت القضاء الاخير على هذه المدينة
الرائعة سوى أقوال أنبياء اليهود التي نمت على شماتهم بها وغيظهم منها وانذارهم لها
بشديد العقاب الالهي .

فما جاء في نبوة ناحوم بعنوان «وحي على نينوى» : «اني أقطع من بيت إلهك التماثيل المنحوتة والمسبوكة. أجعله قبرك لانك صرت حقيراً». ومنها «ها أنا عليك، يقول رب الجنود. فأحرق مركباتك دخاناً وأشبالك يأكلها السيف، وأقطع من الارض فرائسك، ولا يسمع أيضاً صوت رُسُلكِ». ومنها : «وأطفاها حطمت في رأس جميع الأزقة، وعلى أشرفها القوا قرعة، وجميع عظامها تقيدوا بالقيود». ومنها : «نعت رعاتك يا ملك أشور. اضطجعت عظاموك، تشنت شعبك على الجبال ولا من يجمع... كل الذين يسمعون خبرك، يصفقون بأيديهم عليك، لانه على من لم يمس شرك على الدوام ؟»

الامبراطورية الكلدانية الثانية

من سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٣٣ قبل المسيح

ورثت بابل سطوة نينوى نحو قرن ، فكان لها ملك عظيم فخور مملوء بالمطامع تصدَّى لمهاضة سيرة سرجون وأشور بانيبال.

تسلم «نبوخذ نصر» مقاليد الملك الذي أسسه أبوه «نابونصر» في عهده وصار من بعده بليّة على الممالك الصغيرة في آسيا الوسطى، فأخضع أورشليم وقضى على شعبها بالسبي ، وحمل على صور الشاححة ، وبعد دفاع ثلث عشرة سنة فتحها عنوة . وكذلك نازل نينحو ملك مصر وهزمه شر هزيمة .

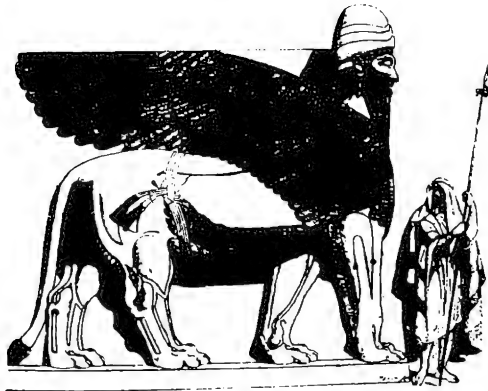
ثم وقف هذا الملك يستريح من عناء الفتوحات . وانصرف الى تجميل بابل ، فبلغت هذه المدينة شأواً بعيداً من الرفعة والمجد والفن ، وفاقت نينوى حضارة وتقدماً حتى أصبحت أعجوبة العالم القديم ، وقد استعمل مؤرخو الاغريق في وصف اتساعها وجمالها أبلغ تعبيراتهم . على ان «نبوخذ نصر» وجه همه أيضاً الى اعمال الري في بابل ، فأنشأ مراوي (مسابقي) جديدة ، بعد أن كرى (طهر) القديعة ، ثم نشط الملاحة في الخليج الفارسي . فحق لهذا الملك العظيم أن يفاخر بأعماله ، حتى ان التوراة أشارت الى زهوه الذي بلغ به حد الجنون . وذكرت ان الله عاقبه على شروره فمسخه دابة رعت الكلاً سبع سنين . ولعل منشأ هذه الرواية يعود الى شخصه وهو في إحدى نوبات جنونه .

أما ابنه «بيلشاصر» فلم يعرف كيف يصون مجد بابل ، فأخذت الدولة الكلدانية

تضعف شيئاً فشيئاً حتى غزاها كورش (Cyrus) ملك فارس سنة ٥٣٣ قبل المسيح .
وبهذه الغزوة كتب للعالم الشرقي أن يتخلص ، الى أمد طويل ، من نير « الساميين » .
ونحن نعرف من التوراة (دانيال ، الاصحاح الخامس) سيرة بلشاصر آخر
ملوك بابل وكيف فوجيء ، وهو في وسط لهوه ، بالجيش الفارسي الذي دخل المدينة
بعد أن حول مجرى الفرات .

ونعرف أيضاً خبر الحادثة العجيبة التي ذكرتها التوراة وخلاصتها ، أن يبدأ خفية
خطت في ليلة الوليمة الفاخرة التي صنعها لعظائمه على حائط القصر هذه الكلمات المزعجة :
« مَنَامًا ثَقِيلًا وَفَرَسِينَ » وهي تنذر بخراب الدولة الكلدانية ، وقد تمّ خرابها فعلاً
قبل أن يبرز الصباح ، وأدرجت في اكفان الفناء .

ولقد ذكر النبي أرميا أن صوتاً رنَّ تلك الليلة في بابل ، ثم عقبه انهيار عظيم
تجاوب صدها في كل اتجاه المملكة ، لأن الله قضى على بابل بالخراب ، وقضى على
أصوات أنبائها بالخفوت . وهكذا سقطت بابل سقوطاً لا قيام بعده : -
« سَادِعُ أَمْرَاءِهَا ، وَعَقْلَاهَا ، وَقَوَادِهَا ، وَقَضَاتِهَا ، وَشُجْعَانُهَا ، يَتَلَوْنَ ، ثُمَّ يَنُوءُونَ
نَوْمًا أَبَدِيًّا لَا يَسْتَيْقِظُونَ بَعْدَهُ .
هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ » .



الباب الثالث

اللغة والخط والأدب

١ - اللغة والخط

دلت الآثار الخطية التي وجد كثير منها في أرض الجزيرة على انه كان فيها لغتان ، أقدمها « السومارواكادية » التي بها تكلم وكتب الكلدانيون الأولون ، وهي عبارة عن الفاظ كوشية في صيغٍ طورانية . والثانية من أصل سامي محض ، وهي الآشورية التي تغلبت على اللغة القديمة فحلت محلها في بابل وبنوى .

ومع انتشار اللغة الآشورية ظلت السومارية شائعة ، وعني القوم بدرسها والحفاظة عليها ، فكان لها مقام اللغات العلمية النبيلة التي وجب على كل مواطن مثقف أن يلم بها . وأخذ علماء بنوى يشرحون المخطوطات الكلدانية القديمة ، وعلقون عليها كما نفعل نحن بالمؤلفات الأغريقية واللاتينية . واهتموا بوضع أصول نحوية وقواميس لفهم هذه اللغة المماتة ونشرها ، وتركوا لنا كثيراً من هذه الكتب ، وأهمها نراه مكتوباً بلغة سومارية إلى جانب اللغة الآشورية . وكل ما نعلمه عن مؤلفات الكلدانيين ولقبتهم إنما وصلنا عن طريق الجنس السامي الذي حل محلهم .

هكذا كانت تلك الشعوب القديمة ، وأولئك الملوك الذين شيدوا القصور وأنشأوا المدن الفاخرة ، قبل أن تتردد على شفاة الناس أقاصيص الألياذة والأوديسة الساحرة ، تسلط على عالم عريق في القدم . وكلا عثرنا في تراب الصحارى على بعض ما تركوا من الآثار الرائعة نجيل لنا أن عصرهم هذا كان من مبتكرات الوهم والخيال . ولكن الواقع هو أن الفاظ « تغلات فلاصر » و « سرجون » و « آشور بانبيال » الحشنة ، لم

تكن سوى أسماء ملوك من عنصر قتي ، بالنسبة للعناصر التي سبقته، ظهر ليثّل بدوره مشهداً من مشاهد التاريخ اللانهائي التي تعاقبت على مسرح الحياة البشرية منذ الازل . وكانوا هم أيضاً لا يرون في تلك الأمم التي سبقتهم أمماً جاهلة متوحشة، بل كانوا يظنّون لها رؤوسهم احتراماً ، كما نطاطي، نحن بدورنا رؤوسنا أمام أفلاطون وأرسطو وفيناغورس .

ولعلمهم توهموا فيهم الألهام فاتخذوهم قبلة ونموذجاً ، وفاخروا بأنهم وارثوا مدينتهم وحُفّاظها من بعدهم ، ان لم يباهوا أيضاً باحتذاء مثالها والنسج على منوالها .
فلا غرو إذن أن شخصت أبقارنا إلى هذه المكتشفات التي مضت عليها القرون العديدة وهي دفينّة في صدور الأزمان .

وكيف لا نذكر ما تركته مدينتنا خلف ظهرها من روائع ذلك الماضي السحيق ، وما نالت من مجهودات الاجيال التي قام عليها أساس معارفنا ونحن لا نشعر بها .
فن هم السككديانون القدماء الذين قبل أن تكون ، وقبل أن يكون لنا فنون وعلم وقيائد وأديان ، كانوا يفيضون على جانبي الفرات من معجزات الذكاء والثقافة ، ويعنون بحفظ آثارهم المخطوطة على الألواح الطفليّة التي نجدها الآن تحت الرمال .
ومن أين جاؤوا ؟ وعن تلقوا فيوض تلك الأنوار ؟

أ كانوا مسبوقين بأمر أخرى ذكروها لنا في نقوشهم التي لم تزل مطمورة في اطلالهم ليهودنا الى جذور شجرة الحضارة البشرية التي لا تفتأ تتكرر صورتها على كرا الأجيال ؟

ربما يكون لهذه الأسئلة نصيب من الجواب متى انتهينا من حل رموز ما بقي من شوارد الآثار التي تركتها لنا آشور وبابل ، والتي ستميط يد المكتشفين اللثام عنها يوماً من الأيام

على ان المكتبة الوحيدة التي أسسها الملك آشور بانيبال في قصر قوبونجيك ببنوى تركت من لوحات الأجر كتلة لا تقل مساحتها عن مائة متر مكعب ، تكوني سطورها لثلاً ما لا يقل عن خمسمائة مجلد ، كل منها يحوي خمسمائة صفحة من القياس الكبير .

على ان هذه النصوص لم تُترجم كلها ولم تحلّ إلا رموز جزء قليل منها مكتوب باللغة السومارية الفانضة ، لأن العلماء لم يقفوا تمام الوقوف بعد على أسرار هذه اللغة . وكانت كتابة الآشوريين والسوماريين والأُمّ المجاورة في بلاد مادي وفارس وأرمينية على أسلوب خطّي واحد هو الخطّ المسماريّ الذي سُمّي كذلك لأنّه على شكل المسامير والأركان مصفوفاً أفقيّاً أو عمودياً ، أو على شكل سنان الرمح . وهذه الكتابة الغربية ، وكذلك أصل الكثير من العلوم ، يرجع عهدها الى الكلدانيين القدماء ، قد ظلت دارجة الاستعمال في آسيا مدة طويلة بعد سقوط بابل . واستعار الآيريانيون بعض حروفها للرمز بها الى الاصوات ، كما أنّ هذه المسامير الهجائية التي ظهرت في زمن كورش استمرت الى حكم الاسرة الآرسائيدية (Arsacides) .

على أن تلك الكتابة المسمارية الكلدانية والآشورية هي كتابة صوتية وليست هجائية ، فلا تدلّ على مجرد الأصوات العادية بل على المقاطع . وأقدمها مُستنبط مباشرة من الكتابة الهيروغليفية ، ومن السهل تتبع الأسلوب الذي تولدت به عنها . وأقد فعلنا مثل ذلك حين أردنا الوصول الى طريقة استحالة الحروف الهيروغليفية الى حروف هيراطيقية ، ثم الى خط جار .

ولكن مصران تتخلص قطعاً من الخط الهيروغليفي التي تعبر فيه الحروف عن المعاني ، مع أن بعض ألواح الاجرّ الكلدانية تدلنا على أن خطهم كان يعبر عن المقاطع ، وقد كان أول نموذج من هذا النوع في العالم .

ويمكن أن يُقال أن كدلة رجعت الى وسط بين الخط الهيروغليفي والمسماري . فجعلت حدود الحروف الدالة على المعاني في خطوط مستقيمة بدلاً من تلك الأركان . وهذا الخط الذي سمي خطأً بالخط الهيراطيقي لبث حتى حكم الآشوريين كما دلت عليه بعض الحجارة الأثرية

واسكتنا نرى في الخط المسماري الآشوري ان الشكل الدال على المقطع ، والمتفرع من الشكل الدالّ على المعنى ، أصبح كلاهما بعيداً عن الآخر كل البعد . وأول تغيير طرأ على الخط الهيروغليفي انه استحال الى بعض خطوط مستقيمة .

ويحتمل أن الخط لم يتقدم أكثر من ذلك . وبهذا الرسم المعتدل كان ينقش على الحجارة . ولكن الكلدانيين قديماً عكفوا على الكتابة على ألواح من اللين اللين . وقد تكون الآلة التي استعملوها هي سبب تلك الأركان التي ظهرت في كل خطوطهم .

وهذه الآلة التي وجد منها كثير في الخزائب كانت من سن الفيل ، تنتهي بطرف على شكل مثلث ، وبهذا الطرف كانوا يضغطون سطح الصلصال فيحصلون على الشكل الذي تكون أوضاعه المتعددة تلك الخطوط المسارية .

وهذه الخطوط كانت عند الكلدانيين أو الآشوريين تتركب من ثلاثة أنواع من الحروف ؛ الحروف الأصلية الدالة على الأصوات ، ثم العلامات المتفق عليها والتي لم يكن لها قيمة صوتية إلا أنه كان يرمز بها إلى الاسم أو إلى كلمة خاصة . وحروف الدلالة ، وهذه كانت توضع أمام أسماء الأعلام وتوضح ما تدل عليه الكلمة التالية لها ، إلهاً كان أم ملكاً ، أم رجلاً ، أم امرأة . أم بلدة ، أم شعباً ، أم حيواناً ، أم معدناً . فكانت أشبه بالحروف الكبيرة التي تكتب عندنا ^(١) في أول الكلمات للدلالة على بعض ما ذكر . والخط الكلداني والآشوري صعب القراءة ، وهو يحتوي على أكثر من ٣٠٠ حرف ليس لها معان محدودة

وهناك صعوبة أخرى غير هذه ، وهي أن الكتاب كانوا يملأون الفراغ القليل بكثير من النصوص ، فكانت خطوطهم دقيقة مندبجة بعضها ببعض حتى أنه كان يصعب تمييزها بغير مجهر .

أما الخطوط التي كانت على جدران القصور من الخارج والداخل ، وعلى التماثيل ، فقد كانت مخصصة للملوك والحوادث المهمة المتعلقة بهم .

على أنهم أيضاً كانوا يستعملون أسطوانات أو قوالب مستطيلة من الطفال يخطون عليها بعض الأسماء التي لا يريدون أن يطلع عليها أعقابهم وذرايعهم ، فيدفنوها في مبان خاصة يشيدونها لهذا الغرض

أما العمود التي كانت تكتب بين الأفراد فكانت تخط على ألواح من الطفال ، على مثال قطع الصابون الذي نستخدمه في زينتنا .

(١) أي عند الفرنسيين ، وهي MAJUSCULE

ولكي يصونوا هذه العقود من التلف كانوا يغلفون الألواح بطبقة طفالية يكتبون عليها صورة ثانية مما كُتِبَ على الألواح المُغلّفة ، ثم يشوونها في الأفران لتجف وتصلب . وهكذا يظل هذا الأثر في مأمن من التلف . فإذا تشوهت بعض نصوصها أزيلت تلك الطبقة الخارجية للوقوف على الحقيقة من الألواح الأصلية .

وكانت الكتب تخطّ على قوالب من الطفال . وقد أشرنا سابقاً الى الكتب التي حوتها مكتبة آشور بانيبال وكانت موضوعاً في غرف القصر الذي شرع جسدُه « سرجون » في بنائه ببنوى ، وأتمه هو من بعده .

وروى لا يارد^(١) الذي اكتشف هذا الكنز التاريخي والأدبي العظيم ، أنه رأى هذه القوالب مبعثرة في عدة غرف مركومة بعضها فوق بعض . ووجد البعض سليماً والبعض مهشماً . ومن الكتابات المنقوشة عليها اتضح أن تلك المكتبة كانت في طبقة القصر العليا ولكنها سقطت الى أسفله على أثر انهياره .

وأكبر جزء من هذه المكتبة يوجد الآن في المتحف البريطاني . وسنرى محتوياته في ما يلي .

وما يجب الالتفات اليه أنه لم يُعثر في الآثار الاشورية ، ولا في أي جهة من أرض الجزيرة على أثر لورق أو ورق ، مع انه لا يوجد أقل شك في أن الآشوريين ، نظراً لعلاقاتهم الكثيرة بالبلدان المجاورة عموماً ، وبمصر خصوصاً ، كانوا لا يجهلون هذه المواد ، ولا سيما ورق البردى ، ولكنهم لم يستعملوه الا في أحوال قليلة .

وكان الكلدانيون والآشوريون يهتمون كثيراً للمستقبل ، وكانهم كانوا يعلمون انهم يعملون للأجيال القادمة . وكثير من أسفارهم ، والمواد التي استعملوها في كتابتها ، يدل على شدة شغفهم بتخليد أعمالهم ، وأن لا تمتدّ اليها يد التلف . حتى انهم وجدوا الأجر أصلح لهذه الغاية ، وأقل عرضة للتغير من الحجر والمعدن ، لان رمل الصحراء الناعم يغطي تلك الألواح فيصونها .

وهذه الألواح تتألف منها أحياناً كتب واسعة متتابعة على ترتيب ونظام خاص ،

(١) أوستن هيري لا يارد (Austin-Henri Layard) منقَّب انكليزي ، ولد في باريس

في سنة ١٨١٧ . وتوفي سنة ١٨٩٤ .

حتى ان آخر سطر من كل صفحة يُكتب مرة ثانية في رأس الصفحة التالية لربط الصفحات ببعضها . وعشاق اللغة الآشورية الذين قصوا حياتهم وبذلوا أقصى جهدهم في حل رموزها قد نجحوا أخيراً في حل طلاسم هذه اللغة القديمة التي عفا عليها النسيان عدة قرون . وها هي الآن تهدينا الى الأفكار والعواطف والمعائد والأجناس التي كان لها الشأن العظيم في ذلك العالم الأسيوي القديم .

٢ - الأدب

قبل أن يستقر الآشوريون الساميون في أرض ما بين النهرين ، وبينما كانت حضارة الكلدانيين تزدهر على ضفاف الفرات ، وقد أفاضت على أمم الشرق ، ثم الأغريق من بعدهم ؛ في ذلك العصر القديم المحفوف بالغموض ، كان للسوماريين وأهل أكّاد مؤلفات في الأدب .

وكان الكلدانيون لا ينشرون مكتشفاتهم أو يخلّدون أخبارهم بعبارات موجزة أو بروايات مبهمه ، بل كانوا يضعون في ذلك كتباً حقيقية ، ومؤلفات شاملة تتناول كثيراً من الموضوعات كالتاريخ ، والعلوم ، والدين ، حتى القصص والأساطير . وبترجمة النصوص السومارية الاكادية القديمة قد تمكن من معرفة أصل هذه الكنوز ، لأن مكتبة « آشور بانيبال » مملوءة بنسف كثيرة منها لا بد أنها كانت الخاطر الأول الذي ألهم الكتاب النينويين .

وكان ملوك آشور يعنون كثيراً بترجمتها ، ولكن هذه التراجم تحول بيننا وبين صحة الحكم على قيمة الأسفار الكلدانية الأدبية ما دُمنا لانستطيع الحصول على غير أصول أو تراجم نينوية .

وكل ما يمكننا أن نقوله الآن ، أخذاً عن الآثار الآشورية ، أن الكلدانيين كانت لهم مكتبات وكتب ومدارس (دور علم) عامرة منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، أي في عصر سرجون القديم الذي أشرنا اليه .

ولقد أخذ المؤرخ « بيروز » تاريخه مباشرة عن كتب بابل ، لأن الاغريق يذكرون هذه الكتب ، التي طالت شهرتها وذاعت ، حتى ان

«داسماشوس» (Daamascius) حدثنا في رسالة «الأصول الأربعة» عن أصل الخليفة، مما استنبطه من مخطوطات كلدانية وجد لها ترجمة صحيحة في مكتبة آشور بانيبال .
ومما يكن من قيمة هذه المعلومات فلا يمكننا أن نذكر شيئاً عن مؤلفات الكلدانيين في الأدب ونكتفي بفحص ما ورد في أسفار نينوى .

وكان الآشوريون يهتمون كثيراً بصحة اللغة ووضوح الأسلوب . وأكثر كتبهم تبحث في قواعد اللغة ، وتشابه الألفاظ ، والكلمات الصوتية ، والاشتقاق . وكانوا يعنون أكبر عناية بلغة الكلدانيين القديمة . وقد وجدت لهم معاجم وكتب للتمرينات والتراجم ، كانت على ما يظهر تدرّس بالمدارس لحفظ قواعد تلك اللغة .

وآثار نينوي التاريخية الدالة على ذلك كثيرة ، بعضها مخطوط على المباني أو على اسطوانات الآجر التي كان الملوك يذفونها تحت الجدران ، وبعضها مرصود في المؤلفات التي حوتها مكتبة آشور بانيبال .

أما أسلوب الكتابة فإنه يخفى يتناول الألقاب الرنانة الضخمة في المواضيع الخاصة بالملوك ، وهي تفيض بالصور والتزاويق . ونحتوي الكتب بيان السنين مرتبة ترتيباً دقيقاً محكماً ، ولكن ذلك بالنسبة إلى الحوادث التاريخية لا إلى الأدب .

وفي مكتبة نينوى رسائل مطوّلة تبوّدت بين الملوك وقوادهم ، أو بينهم وبين العلماء الذين كانوا يرسلونهم إلى الخارج لرصد الأفلاك

على أننا نترك الكلام الآن على الآثار الدينية والتشريعية إلى فرصة أخرى ، ونحصر بحثنا هنا في ما يتعلق بالأدب المحض ، خصوصاً الأقاصيص الخرافية والاساطير وهذه وجد منها شيء كثير في الألواح الآشورية التي سبق ترجمتها ، ولكن بعضها مهشم . وما سلم منها يدلنا على أن أولئك القوم كانوا قادرين على تأليف القصص الخيالية ، والوقوف بها عند خاتمة معقولة على رغم ما يتخللها من الحوادث المتشعبة الكثيرة التي تهزّ العواطف

وأكمل هذه القصص الخاصة بنزول الإلهة العظيمة «أشتار» إلى الجحيم . وهي خرافة لا تخلو من مغزى أدبي ، وأسلوبها شعري راقٍ .
أما «أستار» هذه فكانت إلهة الحب (زهرة - فينوس) في بابل . ولما

فقدت ولدها ، عقدت نيتها على انتزاعه من مرقد الأموات ، ذلك المرقد المحتفي في أحشاء العالم الذي تحكمه آلهة الأرض .

وسند كرك لك شيئاً من هذه القصة التي تذكرنا بما كتبه « دانتى » عن الجحيم . وهذا المكان الذي يفتح القبر طريقه لنا هو : -

« المكان الذي ندخله ، فلا نخرج منه

« الطريق الذي نسلكه ، حينما نذهب ولا نعود

« المقر الذي ندخله ، فنجد بدل النور ظلاماً

« المثوى الذي فيه نعص الأرض ، ونأكل الأوحال

« حيث لا نرى النهار ، وقد كُتِب علينا أن نبقي في الظلام »

ثم تأتي « إستار » بلا خوف ولا وجل إلى مدخل هذا « البلد الساكن » فلا يفتح لها الحارس بابه ، ولكنها تهدده ، فيضطر الى التماس الاذن في دخولها من إلهة الأرض العظيمة

وجينذٍ يحظر الاحياء ببال ملكة الأموات ، فتقابل (تعارض) بينهم وبين نفسها ، والظلال التي تخيم على شعبها وتقول :

« ان مثلنا كمثل النبات المحصود

« ان مثلنا كمثل الزهرة الذابلة ، أما هم فكالشجرة المثمرة »

ومع ذلك تسمح بقبولها قائلة :

« اذهب أيها الحارس وافتح لها الباب ، بعد أن تجردّها من ثيابها ، وفقاً لتقاليدنا

الخالدة . » - فيفتح الحارس الباب ، قائلاً لها : -

« ادخلي أيها الإلهة ، وليكن ما أردتِ

« فان هذا البلد الساكن ستُفتح أبوابه لك . » - وحينما تدخل من أول باب

يستوقفها الحارس ، وينزع التاج الذي يزين رأسها ، فتسأله :

« لماذا تخلع أيها الحارس هذا التاج الذي يزين رأسي ؟ » فيجيبها :

« ادخلي أيها الإلهة ولا تسألني ، فهذه شريعة إلهة الأرض العظيمة . »

وعند الباب الثاني ينزع قرطها ، وعند الثالث ينزع عقدتها ، وعند الرابع ينزع

طيلسانها ، وعند الخامس حزامها المرصع بالحجارة الكريمة ، وعند السادس أساورها
وخلاخيلها ، وأخيراً عند الباب السابع يخلع أقرب ثوب الى جسمها .

فتصبح به « لماذا تنزع ثوب عفاي أيها الحارس !! »

فيقول « أيها الالهة هكذا قصت شريعة إلهة الأرض العظيمة . »

ولما مثلت إستار بين يدي الالهة الجارية ، سخرت هذه منها ثم سلطت عليها
الامراض العذالة ، وبعد ان عذبتها ردحاً من الزمن زجتها في غيابة السجن الأبدي .
« فعمّ الحزن الالهة ، وشمل وجه الأرض . »

« وابتعد الثور عن البقرة والحمار عن الاثنان »

« ورغبت الزوجة عن الزوج تقاومه وهي بين ذراعيه »

« لأنه ذاع في كل مكان :

« بأن إستار نزلت الى جوف الأرض ولم تصعد منه »

وحينئذ أجمع الآلهة على إيفاد رسول الى ملكة الأرض العظيمة يأمرونها بواسطته
ان تفك اسرها . فأطاعته على مضض (كما روت القصة) ولطمت جبينها ، وعصت أناملها ،
ولم تقوَ على عصيان ارادة الآلهة فقالت « إنا متار » مستأرها :

« اذهب إنا متار الى ذلك السجن الأبدي ، واخفِ الألواح التي يمكن بها

الاهتداء الى معرفة المستقبل ، ثم بعد ان تسقى إستار من ماء الحياة أبعداها عني »

وهكذا خرجت إستار مجتازة تلك الأبواب السبعة ، وقد وجدت عند كل منها
ما تركته من حليها وثيابها .

اما ابنها الذي ارادت أن تنشله من مقام الأموات فأمره ظل غامضاً .

على ان هذه الاسطورة تنتهى ببعض الطلائع السحرية والرؤي والتعاويذ التي
قد يكون الغرض منها انتشال هذا الولد السماوي المحبوب .

وهكذا ترى فيها ذلك الخيال الشرقى الساحر ، والذوق المفطور على حب الصور
الدقيقة اللطيفة . والحديث يسير بخطى نشيطة لا يشوبه التحويل الملّ الذي يألفه
شعراء الهند . ويمكن قياسه تقريباً على الأقاصيص الفارسية والعربية الساحرة الممتعة

ويمكن ان يقال أن هذه الأسطورة ليست الوحيدة من بين أساطير الأدب الآشوري ، فأن هناك تفرعاً تدل عنواناتها على أن هذا الأدب حوى غيرها لا يقل عنها سموً ودقةً .

ومن ذلك :

سبئات شياطين الشر السبعة . وخطيئة الآله زو . والخارج على إله . وغزوات لوبارا . والاه الطاعون . وكذلك قصة الفرس والثور ، وقصة الثعلب والنسر والثعبان ، وكلها كانت منتشرة بين الشعب .

ولقد كان ذلك الأدب البعيد يتخذ من أوصاف الثعلب رمزاً الى الدهاء وسعة الحيلة ، حتى أنه بعد أن حُكم عليه بالموت الجريئة من الجرائم خرج منها سليماً بسبب الأسلوب القوي الذي اتبعه في دفاعه .

ومع ذلك فأنها خواطر كثيراً ما لا كتبها السنة الام لأنه « لا جديد تحت الشمس » . اما الامثال الآشورية فكانت تذهب دائماً الى أن الإنسان خُلِق ضعيفاً ، جاهلاً ، شريراً ، يرتكب الخطايا وهو لا يشعر بها . والشائع وقتئذٍ على ضفاف الدجلة والفرات ان السعيد من بولد مكللاً :

« اذا وضعت امرأة طفلاً وكان على رأسه اكليل . فأن ذلك يُدشّر بأن السعادة ستحل معه في البيت »

وكثير من الشواهد تدل على أن الآشوريين كانوا يعرفون الأوزان ، ويقولون الشعر . وفي أقاصيصهم الحماسية ما يُعدّ لبلاغة أسلوبه وسمو موضوعه وذكر الآلهة فيه ، من خير ما وصل إلينا من الشعر الحماسي .

وفي هذا النوع كانت أقاصيص « إستوبار » تعد من الطبقة الأولى . وما كان إستوبار غير « نرود » الذي جاء ذكره في التوراة .

وما جاء في اسفارهم أيضاً عن حكاية الطوفان لا يخرج في كل تفاصيله عما ورد في الكتاب المقدس . (التوراة)

واسوة بغيرهم من الأمم لم يهمل الآشوريون الشعر الغنائي ، وكانوا ينظمونه في الغالب لتكريم الآلهة ، ويوقعونه على بعض الات الطرب ، وقد وُجد منه كثير في

مكتبة نينوي . على اننا نذكر هنا على سبيل المثال قطعة منه كانت كثيرة الانتشار

« اللهم الذي لا تخفى عليه خافية في الظلام ، والذي يضيء لنا الطريق بنوره
« انك الاله الحليم الذي يأخذ بيد الخطاة وينصر الضعفاء ،
« حتى ان كل الآلهة تتجه أنظارهم الى نورك ،
« وشياطين الهاوية تاتهم انظارهم وجهك ،
« حتى كانتك فوق عرشك عروس لطيفة تملأ العيون بهجة ،
« وهكذا رفعتك عظمتك الى اقصى حدود السماء ،
« فأنت العلم الحقائق فوق هذه الأرض الواسعة .
« اللهم ، ان الناس البعيدون ينظرون اليك ويعتبطون »

فالخواطر الشعرية التي سحرت قلب الانسان ، على شدة خشوته وقساوته ، كان
لروح الأشوري الجامدة المتكبرة نصيب منها .

واسكن هذا الشعب الذي كان ذكؤه الجامح يدفعه الى التسلط ، كان له
جيران لا يقولون عنه عظمة ، ولكنهم عظمة قائمة على اللطف واللين .

أن هذا الشعب يعبد الهته كما يعبد ملوكه ، لأن الأواوين بسلطتهم الالهية ،
والآخرين بقوة سيوفهم يضمنون له سيادة العالم لمدي طويل

وفي بعض المخطوطات ما ترجمته :-

« أيها الأيام والسنون والحياة الطويلة ، ويا أيها السيف القوي ، ويا أحقاب
« المجد ، كوني من بعض منج سيدنا الملك الذي وهب مثل ذلك لآلهته .

« فهل تنمو حدود أملاكه الواسعة ويزيد سلطان حكمه ؟

« انه يز الملوك بسلطانه وملكه ، فهل يعيش حتى يبلغ أرذل العمر ؟

« واذا كان قد كتب له النعم في أيامه الحاضرة ، وفي أعياده فوق الجبل الفضي ،
وفي السماء ، فهل تكون أيامه الطويلة مقدسة في حضرة الآلهة الذين يسكنون آشور ؟ »



الباب الرابع

العلوم والصنائع

١ - العلوم

طارت شهرة السككديانيين العلمية في العالم القديم . ولقد وصلت إلينا بعد أن رنّ صداها في جوانب التاريخ .

وهكذا كان الأغريق الراسخون في المدنية يقولون بأعلى صوتهم أنهم أخذوا مدنيّتهم عن



مدارس العلم القديمة التي ازدهرت فوق مجرى الفرات الأدنى في العصور القديمة . واستمر العلم الكلداني محترماً مرعياً إلى عهد نينوى وبابل ، حتى أن ملوك آشور كانوا يرسلون كثيراً من رعاياهم ليأخذوا العلم عن « أور » في اجاديا ، ذلك المعهد العلمي الذي كان يتألق نوره فيزق ظلام العصور الأولى ، عصور ما قبل التاريخ . ولذلك كان يقول ديودوروس ، وهيرودوتس ، وسترابون ، وأرسطو ، وآخرون ، أن غوا العقل البشري كان مترعراً وكاهلاً فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل .

وإذ وقع الاجماع على هذا الرأي فلا بد أنه قائم على أصول ثابتة ، ولذلك لا يكتفي العلم الحديث في اثباته بما جاء في الأساطير والسير الخرافية ، بل يعتمد إلى البحث عن مصادر هذه الأصول ، وإن كانت مباحثه لم تصل حتى اليوم إلى نتيجة يصح الوقوف عندها . ومن نتائج العناية بدراسة بقايا تلك المدنية القديمة ، وترجمة النصوص الآشورية والمسمارية ، علمنا أن مجرى الفرات الأدنى كان مأهولاً بشعب ذكي ، ظالم ، إلى المعرفة ، ماهر في معاملاته . صبور في أنبحاثه . علاوة على كونه أول من حاول الاهتداء إلى أسباب الظواهر الطبيعية التي كانت تجري أمام عينيه .

على أن مجهودات هذا الشعب العظيمة كانت مع ذلك لا تتعدى حدة البحث والاجتهاد في سبيل الكشف عما يمكن إدراكه من نظام هذا الكون المقعد، الذي لم يتمكن حتى الآن نحن أيضاً من أن نمسك إلا أطراف الخطوط الهادية اليه . وتتلخص علوم الكلدانيين والآشوريين في بضع معلومات فلكية ورياضية، وفي مجموعة مشوشة من التنجيم والسحر، ومعلومات بسيطة عن أصول الأشياء . وسنجز الكلام على ما عرفناه عن هذه المعلومات من خلال ما تركه كتاب العهد القديم، ومما وجدنا من صحف الأجر التي كانت بدور الكتب الآشورية . وسنرى من ذلك أن ما بلغته مجهودات رجال العلم الحديث عظيم جداً بالنسبة إلى ما وصل اليه أولئك الناس في تلك العصور القديمة .

على أنه لا يصح أن يغيب عن الأذهان أن فتح الطريق الجديد أصعب كثيراً من سلوك الطريق المفتوح المقعد، وأن ما وُفِّقَت أيدينا اليه من روائع الاكتشافات ما كان ليتم لولا ما كان عليه ذلك الشعب الساذج من النشاط والعمل وحب التفتيش، حتى أنه عندما تجلت له السماء صافية ونجومها زاهية متألقة، أخذ يغوص في أعماقها ليهتدي إلى سر النظام العام الذي يسيّر هذا العالم .

نعم أن مهد علم الفلك كان في كلدية . كان في تلك السهول الفيحة الأرجاء التي يجري الغرات فيها فلا يدرك النظر آخر مداه، وفي تلك السماء الشديدة الزرقة التي ما كانت تشوبها سحب أو تكدرها غيوم، بينا النجوم تتلألأ فيها بشكل لا نجده نحن في سمواتنا القاتمة .

وكان في بلاد بابل مرصد هَرَمِيَّة عالية، إلى جانب قصور الملوك، تُعَدُّ أيضاً كنياكل، والفلكيون يرصدون فيها الفلك وحركاته وكل ما يجري فيه، ويقابلون تقاريرهم المختلفة بعضها ببعض، وكانوا يكتبونها بأمر الملك ويعرضونها عليه . ولقد عثر المكتشفون في نينوى على كثير من الألواح الدالة على ذلك، فمنها :-
« يا آلهة نابوت ومردخاي، اكثبي للمكنا وسيدنا التوفيق . مُدِّي في أيامه وارزقي جسمه العافيه وقلبه الرضى . »

« في اليوم السابع والعشرين اختفى القمر . ولقد ظللنا بعد ذلك الى اليوم

« الثلاثين نبحت عن سبب اكفهار الشمس من غير كسوف . أما في اليوم الأول
« من الشهر التالي ، شهر دوزو (يونيه) ، فقد رأينا القمر يقطع السماء فوق نابو
« (عطار) الذي أرسلت الى سيدي الملك فيما سلف خلاصة بحثي عنه . أما في يوم
« انو (Anu) حول نجمة بيرجه (Berger أي الراعي) فقد أخذ ينحدر في سيره ،
« ولم يكن قرناه ظاهرين في كل طريقه بسبب المطر . وفي يوم «أنو» أخطرتُ سيدي
« الملك بما شاهدته عند اقترانه .

« ولقد ظهر بعدئذ فوق نجمة شار (Char المركبة) في مسيره يوم بيل
« (Bel أعظم آلهة بابل) اختفي عند تلك النجمة .
« أسأل سيدي الملك السعادة والسلام . »

مثل هذه الأرصاد المجموعة بعناية يوماً بعد يوم مدى عدة قرون كان من شأنها
أن تؤدي الى بيانات دقيقة عن حركة الكواكب ، وصمحت للكلدانيين أن يتنبأوا
على وجه تقريبي بما سيقع من خسوف القمر في مواعيده وتواريخه ، في أدوار جملتها
٢٢٣ شهراً قريبا أي نحو ثمانى عشرة سنة .

وكل دور من هذه الأدوار كان يطلق عليه اسم « ساروس » الكلدانيين . وقد
عرفه الأغريق من بعدهم ، خصوصاً الفيلسوف سائيس المليتي ، الذي حقق وضبط حسابه .
وبحسن أن لا يذهب بنا الظن الى أن علماء بابل كانوا على علم تام بدقائق
الحساب المعقد الذي يمكّننا اليوم من معرفة تواريخ عودة الخسوف والكسوف
بكل دقة

أما ما كانوا يصلون اليه من النتائج فقد كان على وجه التقريب . نعم أنهم كانوا
يعلمون ان كسوف الشمس ناشئ عن توسط القمر بين الأرض وبين هذا الكوكب
العظيم ، ولكن تنبؤهم به كان يخطئ ، أحيانا بخلاف تنبؤهم بخسوف القمر ، لأن
« الساروس » في الحقيقة لم يكن كافياً لجعل تنبؤهم قائماً على أساس الدقة .

وقيل أن فلكيي بابل كانوا لا يجيئون وقت اعتدال النهار مع الليل . والاغريق
الذين كانوا على علم به قالوا انهم أخذوه عنهم . ولكن مبلغ ما وصل اليه علمهم ، وما عثرنا
عليه منه ، يدل على أن حسابهم لم يكن من الدقة بحيث يصل بهم الى هذه الغاية

وربما وصلوا اليها على وجه التقريب ، بطرق تجريبية لاتسير على قواعد صحيحة
ثابتة كما كان الحال في ما يختص بالخسوف والكسوف .



(ملك اشوري ووزيره)

ونحن مضطرون
الى التسليم بأن
ارصادهم الفلكية هذه
قد استمرت زمناً
طويلاً جداً ، مما
يحملنا على الرجوع
بتدنيهم الى عهد
سحيق لا يمكن قبوله
ومما لا شك فيه
هو ان الكلدانيين ،
والاغريق من بعدهم ،
يرتدون بالبحاثهم
الفلكية الى ٤٧٠٠٠٠
سنة قبل التاريخ .
ونحن لا يمكننا الى
الآن التسليم بثقل
هذا الرقم الخرافي

والتاريخ الوحيد الذي نعرفه يقيناً هو تاريخ حكم سرجون القديم ، الذي يرجع
الى ٣٨٠٠ سنة قبل المسيح .

ولقد جمع هذا الملك في مخطوط واحد - عثر المكتشفون على بعض بقاياه - كل
البيانات الفلكية التي انتهت الى عهده .

أما اذا أردنا أن نرجع الى بيان صحيح دقيق ، وجب علينا أن نعود إلى عهد

نبخذ نصّر ، أي الى ٧٢١ سنة قبل الميلاد ، فترى أن هذا الملك أراد أن يبدأ كل شيء من تاريخ ملكه ، فأعدم كل التقاويم والكشوف الفلكية التي كانت باقية الى عهده ، وقطع علينا الطريق لمواصلة البحث في ما وصل اليه علم الكلدانيين في الفلك . وفي عصره كان البابليون ، ومن باب أولى الآشوريون ، يعلمون كثيراً عن الكواكب الظاهرة للعين المجردة . ويميزون تمام التمييز بين النجوم الثابتة ، ويطلقون عليها هذه الأسماء :

إيا ، أي ساتورن أو زُحل . وبيلا ، أي جوبيتر أو المشتري . ونرجال ، أي المريخ ، وإيستار ، أي فينوس أو الزُّهرة . ونابو أي عطارد

وكانوا يعدون القمر والشمس من بعضها

ثم انهم كانوا يقسمون هذه الكواكب إلى مجاميع مختلفة وضعوا لها مسميات ورموز ، خصوصاً التي تتألف منها منطقة البروج

وكانوا يعلمون أن السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، ولكنهم في أحوالهم المدنية كانوا يعددون الى السنة المركبة من اثني عشر شهراً قرياً ، حيث يكتلونها في أوقات ثابتة بشهر إضافي .

وكانت تقاويمهم متنوعة ، فمنها ما هو خاص بالعبادة والأعياد الدينية ، ومنها ما كان خاصاً بسير الفصول ، وشروق الكواكب وغروبها ، ونوع ثالث منها كان يرجع اليه لمعرفة التغيرات الجوية ، وحالة الحاصلات ، وما يعتريها من الجذب والخصب . وهذه التكنينات أو التنبؤات التي نشأ بعضها من ملاحظات دقيقة لم تكن هي وحدها كل ما اهتم به كنة الكلدانيين ، لانهم كانوا فوق ذلك يستعملون أساليباً من التنجيم والطلاسم اشتهر بها علماء بابل .

وكان تأثير الكواكب في سير الفصول ، ومدد الأيام ، و بعض الظواهر الطبيعية متغلغلا في نفوس أدل ذلك العصر . حتى أن كل حركة كانت تقع فوق سطح الأرض كانوا يعللونها بأنها حاصلة من تأثير الأجرام السماوية .

ولقد كان البحث عن الصلة بين الكواكب من حيث ظهورها وما يقع على الأرض من الحوادث وسيلة اتخذوها الى التعهدت بمصير الناس والدول ، حتى أصبح

ذلك مشغلة للكلدانيين وأساساً لعلم خفي كانوا ينشرونه على العالم حتى أخذه عنهم الأغريق، ثم الرومان، فالعرب، ثم انتشر في قارة أوروبا وبقي أثره إلى الآن .
ويمكن الاهتداء الى موجز من علوم الفلك والتنجيم عن علماء بابل مما ذكره ديودورس الصقلي، لأن الاكتشافات التي تمت على أيدينا لم تهدنا الى شيء كثير من ذلك، فخير لنا أن نرجع الى روايته :

« ان الكلدانيين هم أقدم سكان بابل ، وكان مقامهم في الدولة كقيام الكهنة في مصر لهداية الناس الى عبادة الآلهة . فكانوا يقضون حياتهم بالتأمل في المسائل الفلسفية ، ولهم شهرة لا تجارى في علم التنجيم حتى كانوا يخبرون بالغيب ، ويحاولون منع الشر وحجب الخير بوسائل لاتتعدى التطهر أو القربان أو السحر . وكان من ضمن وسائل عرفانهم الغيب العياقة (أو زجر الطيور) . وكانوا يفسرون الأحلام ويمالون الخوارق . ولتفضلهم من معرفة احشاء الضحايا كان الناس يعتقدون أن مائة ولون هو الحق . »
« ولقد كانت هذه العلوم ميراثاً يأخذه أبناء الكلدانيين عن آباؤهم ، ولهم في مقابل ذلك اعفاؤهم من ائقال الالتزامات العامة، ورفع الضرائب عن كواهلهم . »
« وكان الكلدانيون يقولون بأبدية العالم، وأنه لم يكن له أول يبتدىء عنده حتى يكون له آخر ينتهي عنده . وبموجب فلسفتهم كانوا يعتقدون بأن الحياة والنظام اللذين تظهر بهما المادة إنما هما سرّاً من أسرار الآلهة . وأن مانراه في السماء لم يكن اتفاقاً وانما هو أثر من آثار إرادتها .

« ولقد أطلالو النظر الى الكواكب من غابر الزمن ، فاهتدوا الى حركتها وتأثيرها في الناس ، وبها توصلوا الى علم الغيب (الطوالع) الذي أخذوا ينشرونه في العالم .
« وكان أهم علم في نظرهم هو العلم الخاص بحركة الكواكب السيارة الخمسة ، وكانوا يسمونها « بالترجمان » . وانهما عندهم وأكبرها تأثيراً ما كان يسميه الاغريق « كرونوس » (Kronos) أي زحل ، ويطلق الكلدانيون عليه اسم كيلوس (Kélus) . أما الكواكب الأخرى فاسمها هي على ما هي عليه الآن ، أي المريخ (Mars) والزهرة (Venus) وعطارد (Mercure) والمشتري (Jupiter) .

« أما تسميتهم إياها « بالترجمان » فلأن الكواكب السيارة التي لها حركات

خاصة ليست لسواها من الكواكب الثابتة ، كانت تدلّهم على الحوادث وتكشف للناس عن نيات الآلهة الحسنة .

« وكانوا يقولون أن الباحثين المهرة يمكنهم أن يُبَيّنوا بالغيب مجرد النظر الى الشروق والغروب ، ولون الكواكب ، فيخبرون بما سيقع من العواصف والأمطار ، والحرارة الشديدة ، وظهور الكواكب ، والحسوف والكسوف ، والزلازل ، وكل ما يقع على الأرض من التغيرات ، وفي ذلك كثير من إشارات السعد أو النحوس للأفراد ، والبلدان ، والأمم ، ولا سبأ الملوك .

« وكانوا يقولون أن في الطبقة السفلى من تلك الكواكب الحسنة ، ثلاثون كوكباً اسمها الآلهة « المُستشارَةُ » ، نصفها يتجه الى سطح الأرض ونصفها الآخر يتجه الى قاعها . وهي كلها رقية على مايجرى بين الناس وفي السماء . حتى ان كل عشرة أيام يقوم من بينها كوكب مندوباً عنها من المناطق العليا الى السفلى ، بينما ينتقل كوكب آخر من جوف الأرض الى مافوقه ، وذلك في أوقات معينة .

« ومن بين هذه الكواكب المستشارة اثنا عشر كوكباً يتحكم كل منها في شهر من شهور السنة ، ويكون واحداً من اثني عشر رمزاً لمنطقة البروج .

« وكل من الشمس والقمر والكواكب الحسنة المتقدم ذكرها تمر بهذه الدورات تتم الشمس دورتها في مدى سنة ، وأما القمر في مدى شهر .

« ولكل كوكب مدار خاص .

« وتختلف الكواكب بعضها عن بعض باختلاف سرعتها والزمن الذي يقطعه مدارها ، وتؤثر في ميلاد الناس وحظوظهم ، ولذلك يتخذها الباحثون كتاباً يقرأون في سطوره الغيب . فذكروا نبوءات كثيرة لعدد لا يحصى من الملوك ، كداريوس الظافر ، واسكندر ، وأنتيجون ، وسلوقيوس تيكاتور . ويظهر ان هذه النبوءات صدقت ولم تخطئ ، وستكلم عليها في مكانها .

« ولم يحرم الخاصة من الوقوف على محبّثات مستقبلهم ، وكانوا يدهشون ويعجبون بدقّة أولئك المنجمين .

« أما فيما عدا منطقة البروج فقد ذكروا أربعة وعشرين نجمة ، نصفها في الشمال

ونصفها في الجنوب، سموها قضاة الكون . اختص الظاهر منها بالأحياء ، والخفي بالموات .
 «أما القمر فقد كان الكلدانيون يقولون أنه يدور تحت كل الكواكب قريباً من
 الأرض بسبب الثقالة (Pesanteur) ويُتم دورته في وقت قصير ، ليس اسرعة
 حركته ولكن لأن مداره قصير
 » ونور القمر مُكْتَسَب ، وخوفه مُسَبَّب عن وقوع ظل الأرض عليه ، كما
 ذكر الأغريق

« أما عن كسوف الشمس فقد كانت معلوماتهم مبهمه ، حتى انه لم يكن في
 وسعهم أن يتنبأوا عن زمن وقوعه

» وللكلدانيين عن الكرة الأرضية آراء غريبة . فقد كانوا يذهبون الى أنها مجوّفة .
 وأنوا ببراهين عديدة على صحة نظريتهم التي تنص على أن نظام الكون واحكامه . «
 وكان الشهر القمري عندهم ينقسم الى ثمانية وعشرين يوماً أي الى أربعة أسابيع ،
 كل أسبوع منها سبعة أيام .

وهم أول من سَمَّى هذه الأيام السبعة بأسماء الكواكب السبعة . وقد حفظنا عنهم
 ذلك ، أما اليوم السابع فقد كانوا يعتبرونه يوم راحة ، كيوم السبت عند
 اليهود . وكان لديهم آلات يقيسون بها الزمن ، منها المزاوِل الشمسية ،
 والساعات المائية ، وآلات معدة لأخذ ارتفاع الشمس



وروى هيرودوتس أن الاغريق أخذوا عن الكلدانيين تقسيم النهار الى اثني
 عشر جزءاً . ولا ريب في ان هذه الاجزاء هي ساعات النهار الاثنا عشرة ، من الصباح
 الى المساء ، لان الكلدانيين كانوا يقدرون اليوم ، أي الليل والنهار ، بأربع
 وعشرين ساعة

ونحن نعلم أن سكان الجزيرة اخترعوا أصطربالا (astrolabe) لقياس ارتفاع
 الكواكب ، ولا يبعد أنهم عرفوا بعض خواص العدسات ، فقد عثر النقبون في خرائب
 نينوى على عدسة منها ، ويظن أن بعض الكواكب التوابع للمشتري وزُحَل كانت
 لا تُرى في مراصد بابل إلا بعدسة . ولكن يجب البحث عن أداة أقوى من تلك

للحكم على مسألة من الأهمية بمكان كهذه ، لأنه يصعب تصديق وجود مثل هذه الوسائل عند الكلدانيين مع عدم وجودها عند المصريين والأغريق الذين كانوا على أوثق الصلات بهم

أما المسائل الرياضية فالآثار الدالة عليها ، مع قلتها ، تكفي للدلالة على أن الكلدانيين كانوا بها أيضاً أغزر علماء منهم بالمسائل الفلكية

واقد وجد في « سينكره » (Senkerel) لوح قديم ، هو الآن بالمتحف البريطاني ، بعد أكبر بيئة على صحة ما ذكره . وبدلنا على أن علم الاعداد عند الكلدانيين كان لا يقل عن مثله اليوم ، وأن تلك الامة كانت أولى الأمم التي اعتمدت وحدة « مترية » كالوحدة التي نستعملها نحن (الفرنسيون)

وتلك الواحدة التي عثر عليها المتقون في سنقرة مخطوط على أحد وجيها مكهبات الاعداد من رقم « واحد » الى رقم « ستين » وعلى الوجه الثاني سلسلة كاملة لمقاييس الاطوال .

وكان الكلدانيون يرجعون في حسابهم إلى ثلاث طرق . وهذه الطرق هي الطريقة العشرية ، ومنشأها اعتيادهم العد بأصابع اليدين العشرة ، والطريقة الاثنا عشرية ، وكانوا يستعملونها لكثرة عواملها المعادلة لرقم ١٢ ، ثم الطريقة الستينية وأساسها رقم ٦٠ ، فيمكن قسمتها إلى عشرات وإلى اثني عشرات فتجمع بين الطريقتين السالفتين .

وكثير من الأمم أخذت هذه الأساليب عن مخترعيها الكلدانيين واستعملتها . ونحن أيضاً نستعمل الطريقة العشرية ، والطريقة الاثني عشرية في ما نطلق عليه اسم « المذبذبة » أو « الدسنة » (douzaine) وهي كثيرة الانتشار . وكذلك الطريقة الستينية فيما يتعلق بحساب الزمن أو تقسيم المحيط عند الملاحين أو الفلكيين . على أن هذه الطريقة الأخيرة لم يستعملها قديماً إلا علماء الكلدانيين . فقد كان محيط الدائرة مقسماً عندهم إلى ٣٦٠ درجة ، والدرجة إلى ٦٠ دقيقة ، وهذه إلى ٦٠ ثانية والثانية إلى ٦٠ ثالثة ورموز هذه التقاسيم هي التي تستعملها إلى الآن .

وكان اليوم عند الكلدانيين يقسم إلى ٢٤ ساعة ، والساعة إلى ٦٠ دقيقة

والدقيقة الى ٦٠ ثانية . وهم يطبقون هذه التقاسيم على المدد . فكانوا يفرضون فترة من الزمن طولها ٤٣٣٠٠ سنة يظهر لهم أنها يوم في حياة العالم ^(١) ، وهذه الفترة تقسم إلى ١٢ سار (Sare) أو ساعة من ساعاته وكل سار منها ٣٦٠٠ سنة . وكان السار يقسم الى ٦٠ صوصاً (Sosses) أي دقيقة كونية ، كل منها ٦٠ سنة ، وأخيراً الى السنة التي يعتبرونها بمثابة ثانية من ثواني الحياة العالمية .

أما طريقهم في الوزن والقياس فكانت كالتي عندنا تقوم على وحدة طولية كان يطلق عليها اسم « أنبان » (Empan) وتعادل ٢٧ ملليمترًا . وكان مربع الأنبان ومضاعفاته وما تحت ذلك لقياس المساحة السطحية .

وعثروا في بابل على مكاييل وموازين . فالأولى عبارة عن أوان من الآجر ، والثانية من البرنز ، ذات أشكال مختلفة ، منها ماهو على شكل أسد أو حواف أو بطة ، مذكوراً فوقها مقدارها مع اسم الملك واسم من اعتمد صحتها . وأطلقوا على وحدة الأوزان اسم « مين » (Mine) وكانت تعادل تقريباً ما زنته ٥٠٠ جرام (رطل تقريباً) ومضاعفه وزنة (Talent) يساوي ٦٠ ميناً ، وهذه تقسم الى ٦٠ درهماً .

ومن هنا نرى أن علوم الرياضة والفلك هي التي ترعرعت في بابل وفيما بعد انتشرت في آشور . ومن دار كتب آشور بانيبال علمنا أن البابليين والاشوريين حاولوا تصنيف الحيوانات والنباتات التي عرفوها

وكانت الحيوانات منقسمة إلى فصائل ، منها اللواحم (آكلة اللحوم) وتناول كثيراً من الأنواع كالأسد والذئب والكلب الذي يقسم إلى أنواع مختلفة . ومنها العواشب (آكلة العشب أو النبات) كالثور والخروف والمعز . ومنها الحشرات ، وهي مرتبة على حسب طريقة غذائها . فمنها ما يعيش على الخشب والصوف ، ومنها ما يعيش عالة على الانسان والحيوان .

أما النباتات والمعادن فقد راعوا في تصنيفها أساساً يرجع إلى تشابهها وطرق استعمالها .

(١) يظهر ان مايقرب من ذلك كان معروفاً عند الصينيين والهنود أيضاً .

وقد عثر الباحثون على بعض أدراج حوت جغرافية بعض البلاد الشهيرة وأسماءها وحاصلاتها .

وقصارى القول ، نرى أن نصيب بابل من المعرفة ، مهما يكن من شأنه ، لم يبلغ العلم بالمعنى الصحيح ، وإنما كان عبارة عن عدة ملاحظات ومحاولات دقيقة في هذا السيل .

فقد عرفوا أشياء كثيرة ، ولكن لم يكن لهم علم بالقوانين العامة التي تدخل تحت سلطانها .

ومع ذلك لا يحق لنا أن ننتقد الأسلوب الذي اتبعوه ، فإن كثيراً من أفذاذ مفكرينا يرجعون اليوم اليه من رصد الحوادث والصبر على بحثها حتى يصلوا إلى حقيقة القوانين .

ومعلوم أنه قبل فهم الطبيعة وتفسير سُنَمها يجب إطالة النظر إليها والتأمل فيها . فبعد ملاحظة ما لا يخص من المشاهد أمكن معرفة ناموس الجاذبية الذي بوجهه يسقط ثمر الشجر ، ويتم الكواكب دورتها بانتظام .

وولع السكلدانيين باكتشاف حقائق الأشياء انتقل الى الآشوريين ، ثم الى الأغريق . فكلدة وحدها هي التي شعرت في ظلمة هذا الكون بالظلم الشديد الى العلم . واليها وحدها يرجع الفضل في ما كتبه الإنسانية من التقدم والارتقاء ، والخروج من طور النهمية والوحشية

وهذا الطلسم الذي يحول بيننا وبين الوقوف في طريق التقدم ، ألا وهو « العرفان » كان وجهه عقلاؤها وحكمائها ، كما هو قبله أنظار المفكرين فينا الذي يدفعهم الى مواصلة البحث في رمال الصحراء عن الاطلال التي تهدينا الى ما كان عليه اهل تلك القرون البائدة .

٣ - الصناعات

يضطرننا البحث في صناعات السكلدانيين والآشوريين الى الرجوع الى العصر الحجري . لأن كثيراً من الادوات القديمة المصنوعة من الطير (Silex حجر الصوان) وجدت في اطلال بلادهم .

ويمكننا أيضاً ان نهتدي الى أصل العصر البرنزي ، لأن بعض الحفلات والمحطرات هدتنا الى آثار هذا العصر الذي كان الحديد فيه نادراً جداً ، حتى كان لا يُصنَّع منه سوى الحلي

ولسكن هذا المعدن وُجد في كل ادوار العصور التاريخية وكثر استعماله . وكان من بين الدفائن التي عُثر عليها بعض ادوات من الفولاذ . فهذه الصناعة أذن قديمة ، وكانت ذات شأن في البلدان المجاورة لأرض الجزيرة ، حتى لقد ذهب الظن الى ان فولاذ دمشق الشهير ، الذي كان الأقبال عليه شديداً في القرون الوسطى ، لم يكن سوى ما أخرجته مصانع بابل ثم استقر في سورية بطريق التوارث . ولا نعرف أمة أدخلت الحديد والفولاذ في صناعاتها قبل الكلدانيين والآشوريين

والرأي التاريخي الذي يُعَلَّل استمرار حكم نينوى لبلاد العالم القديم بسبب وفرة هذه المعادن لديها قد لا يخلو من الصحة .

وكان الآشوريون مولعين بالأسلحة . فسيوفهم وحرابهم وتروسهم ، ودروعهم (Bouclier) وخوذاتهم كلها كانت آية في المثانة والالتقان . على انه يكفي التأمل في الخناجر ذات المقابض التي على شكل سبعين التي نراها بين ايدي تماثيل ملوكهم حتى تقتنع أنها من أبداع الآثار الفنية

وكان عندهم عدا ذلك أدوات كثيرة كالحرايث ، والمعاول ، والخطاطيف ، والسلاسل ، والمقابض ، والمفاصل وغيرها

وهذا المعدن كانوا يستعملونه أيضاً في الأبنية التي كانت في حاجة الى تقوية ، حتى ذكر ديودورس الصقلي ان قنطرة على الفرات في بابل كانت أعدها الحجرية مربوطة بمشابك (Fibulas) من الحديد ، وان الفراغ الذي بين أجزائها كان مملوءاً بمذوّب الرصاص لتوثيق الحجارة بعضها مع البعض . وهكذا كانت كل انواع الصناعات الحديدية زاهرة على ضفاف نهري دجلة والفرات

وكان الذهب والفضة مستعملين أيضاً ، ولكن بغير مزج ، وكانوا يطرَقونهما صفاً رقيقة يزينون بها الجدران ويصنعون منها التماثيل :

قال هيرودوتس « انه كان في هيكل « بيل » تمثال كبير من الذهب يمثل

جالساً ، وبقرب هذا التمثال مائدة كبيرة من الذهب أيضاً . وكان العرش وسلمه من هذا المعدن نفسه ، ووزن كل ذلك ، على ما جاء في تقارير السككدينيين ، نحو ثمان مائة »

على أن ديودورس الصقلي ، الذي ذكر خبر هذا الهيكل عن طريق السماع ، لأنه لم يرَ إلا أبقاضه ، وصف بعض تماثيل من الذهب ، وأفاعي من الفضة . وقال عن تمثال المشتري والمائدة التي امامه أنهما كانا مصفحين بالذهب .

وفي بعض المخطوطات أن الملوك كانوا يباهون بعظمة قصورهم التي كانت جدرانها مغطاة بالفضة . إذن كان صهر هذين المعدنين وتطريقهما (مطالعها) من الأمور المعروفة في ذلك العصر .

ومما يستحق النظر هو صناعة البرونز . وهو مزيج من النحاس والقصدير . فنه صنعوا النواقيس الرناتة ، والأبواب السمكية ، والسيجات وأسوار القصور والمدن . « وكان الدخول الى الحصن الذي شيدته « سيميراميس » من باب ذي ثلاث طبقات ، خلفها عُرف من النحاس الأحمر لا تُفتح إلا بواسطة آلة ميكانيكية » كما رواه ديودورس الصقلي .

وكان البرونز يُصهر ويُصب في بابل وآشور . ويدل على ذلك ما عثروا عليه في أطلالهما من التماثيل الصغيرة ، والزخارف ، والأواني ، والقدور ، والجامات (Coupes) والصحن ، وكذلك القوالب التي كانوا يصبونها فيها .

وبلغ من براعتهم أنهم كانوا ينقشون الصُور الدقيقة في الحجارة الشديدة الصلابة ، كالبحر اليماني ، والعقيق الأبيض ، والجزع البقراني (Sardoine) وغيرها ، وكان نقش تلك الصور الدقيقة يحمل على الظن بأن النقوش البارزة كان يستعان على صنعها بعدسات . وربما كانت العدسة الزجاجية التي عُثر عليها في نينوى مما يقوي الظن بأن أولئك القوم كانوا يعلمون ما لتغير العدسة من قوة التكبير

وربما كان الحفر على الحجر الصلد أقرب عندهم الى الصناعة منه الى الفن ، لأن الصناع كانوا في حاجة الى السرعة إنجازاً لما يُطلب منهم .

قال هيرودوتس ، وأيده في ذلك بعض ما عُثر عليه من المكتوبات ، ان كل

أشوري وكل بابلي كان له خَتَمٌ يستعمله كالأَمْضاء ، يوقَّع به على الأجر اللين في آخر ما يكتب عليه من الرسائل أو العقود .

أما الفقير الذي لا يملك خَتَمًا فقد كان يصم عدة مرات بظفره . ولكن ذلك كان نادراً ، لأن الأختام كانت متفاوتة الأثمان ، فلا يقتصر نقشها على الحجارة الكريمة بل كانت تتناول أيضاً الصَّدف والحصى .



على أن هذه الأختام كانت عُرْضة للتجديد المستمر ، لأن أصحابها اعتادوا أن يضعوا كميةً منها بين طبقات بناء قصورهم وغيرها من معابد وقلاع . ولا بد أن ذلك كان يحصل في إبان الاحتفالات التي كانت تقام عند وضع أساسات تلك المباني ، فيندفع الناس إلى القاء أختامهم فيه ، مُضحون بتلك الآثار الثمينة التي جمعها الكثير منها في متاحفنا العديدة ، وأغلبها على شكل اسطواني يدور حول محور (كالمحْدَلَة) بحيث يمكن طبع ما عليها من الصور بسرعة بمجرد إمْراره على سطح مُستوٍ .

وكانت قوالب الأجر تقوم مقام ورق البردي أو (المِهْرَقِ والرق) أو مقام الحجر الذي لم يكن موجوداً عندهم ، ولذلك كانت صناعة الأجر من أهم الصناعات في ذلك الزمان

وكانت عجينة الأجر اللينة تُجفَّف في الشمس أو تُحرق في النار . وكانت الأولى تستعمل في الجدران الداخلية وتقوى بطبقة من الغاب (الحَبْنة) وبالاَسْمَت (المونة) ،

وكانت على أنواع أهمها إثنان كان استعمالهما شائعاً ويدخل في تركيبهما الصلصال مخلوطاً بالزفت الكثير الوجود على شواطئ الفرات وعندما تترصّ ديدودورس لوصف قصر سميراميس، قال :-
 « قد كان مقوًى بحيطان بدبعة مرتفعة مبنية من الآجر المحروق . وكان بداخل كل حائط حائط آخر من الآجر اللين (اللين) عليه كثير من النقوش تمثل عدة أنواع من الحيوانات »

ووصف هيرودوتس كيفية بناء حيطان بابل ، فقال :
 « كان الآجر يصنع من تراب الأرض التي يحفرون فيها خنادق الاساسات . ولما تكمل السكبة اللازمة كانوا يحرقونها في أفران . وبدل المِلاط (المونة) كانوا يستعملون القير (أو الزفت المعدني Bitumen) بعد تسيجه وبين كل ثلاثين عرقة (مدماك) من الآجر توجد طبقة من الحصير المصنوع من الغاب (الحجة) المشبع بالزفت . وعلى مسيرة ثمانية أيام من بابل توجد مدينة « إيس » (Is) على جدول بهذا الاسم يصب في الفرات ، ومع مياه هذا النهر تنصب كمية كبيرة من هذا القير الذي صنعوا منه أسوار بابل »

وكان هذا الأجر ذا ألوان مختلفة ، فنه الأصفر ، والبرتقالي ، والأحمر ، والأسمر ، والأزرق السجاي . وهذا التنوع في اللون سببه طبيعة الأرض وتأثير الطبخ . وعلى كل حال فقد كانت تلك وسيلة استخدمها المهندسون ليقلدوا بها حيطان إكباتان^(١) . وهذا ما ذكره هيرودوتس عن هذه المدينة التي نسب تشييدها الى ديجوسيس (Déjoces) أو دياكو (Dayakkou) ملك الماديين وان كان ديدودورس يقول أن سميراميس هي التي يرجع الفضل إليها في إقامتها :

« وأسوار هذه المدينة مستديرة بجمعها مركز واحد . ولكل سور منها عند نهايته شعب بارزة على شكل الأنسان ، فكان كل سور يزيد ارتفاعاً على المجاور له بحيث تظهر شعبه هو أيضاً ولا تزيد على سبع . وكانت شعبها تختلف بعضها عن بعض في

(١) Ecbatane أراحمتا الوارد ذكرها في التوراة في سفر عزرا في الاسماع السادس والعدد الثاني ، كانت عاصمة بلاد مادي . أما الآن فان اسمها حمدان في بلاد فارس .

اللوت ، فترى شُعب السور الأول يضاء ، والتي تليها سوداء ، فخرماء ، فزرقاء ، فبرتقالية ضاربة الى الحمرة . اما شُعب السورين الباقيين فبعضها عليه طلاء من الفضة وبعضها من الذهب »

وهذه الطبقة الفضية أو الذهبية هي من الصفائح . وكان اللون الأبيض من الجير (الكلس) والأسود من الزفت ، أما الألوان الأخرى فربما كان سببها تنوع لون الآجر على ما سبق ذكره .
وكثيراً ما كانت تُقام في كلدة أبراج هرمية ذات سبع طبقات مختلفة الألوان . وربما كان الدافع لهم الى توخي هذا العدد وتلك الألوان تأثرهم بالكواكب السبعة وما نسبوه اليها من الألوان .

أما ما أخذ الألوان فقد كانت معروفة في ما بين النهرين . فالأحمر أكسيد النحاس ، والأصفر أكسيد الحديد ، والأبيض أكسيد الزنك ، والأزرق الكوبالت . وبهذه الألوان كانوا يلونون عجيبة الزجاج التي كانوا يطلون بها الفخار ليكسب لون المينا أو « القيشاني »

ولم تكن صناعة الفخار في بابل أو آشور رائعة من الوجهة الفنية . ولكنها مع ذلك كانت تتناول أشياء كبيرة الماحة . واكبر ما وجد منه مطبوخاً غطية توابيت (نواويس) الموتى وأعطيتها ، وهي من قطعة واحدة بطول الإنسان ، يُوضع الميت فيها مع بعض اشيائها كانوا يدفنونها معه . وكانت هذه التوابيت أحياناً مؤلفة من جزئين كبيرين كل منهما بشكل قدر نُوضَع اطراف الميت السفلي في احدهما ، وباقي جسمه في الأخرى ، ثم تتصل أحدهما بالأخرى اتصالاً محكمًا .

وكثير من هذه التوابيت وُجِدت في بابل التي كانت ، على ما يظهر ، الأرض المقدسة حيث يدفن الآشوريون موتاهم

أما الخشب والجلود فقد كان استعمالها دائماً في كثير من الصنائع ، ومنها صناعة السفن . لأن البابليين كانوا ملاحين في الأنهر والبحار كما يدل عليه قول النبي اشعيا :-
« هذا ما يقوله الرب فاديكم قُدُوس اسرائيل . لاجلكم ارسلتُ الاعداء الى بابل واسقطت كل عمدتها ، وهزمت الكلدانيين الذين وضعوا كل ثقتهم في سفنهم . »

ولا شك ان هذه السفن التي كانوا يأمنون اليها آمنً صناعةً وأشدَّ صلابَةً من القوارب التي تجري في الأنهر، وقد وصفها لنا هيرودوتس . وسنأتى الآن على هذا الوصف لغرابته، ولأنه ينطبق أيضاً على السفن التي تنحدر في ايامنا الى الدجلة والفرات . قال : -

« وسأحدثكم عن شيء آخر لا يقل إبداعاً عما في هذه المدينة . فأن السفن التي تُستخدم للذهاب الى بابل مصنوعة من الجلد على شكل مُستدير . ويمكن صُنعها في أرمينية ، في شمال آشور . ويستعان على ذلك بخشب الصفصاف لتشكيل هيكلها ثم يكسونه بعد ذلك بالجلد حتى يصبح كالدرع لا يميز بين مقدمه ومؤخره . ثم يملأون قاع هذه السفن بالحطب أو القاب (البوص) .

وهذه السفن (أو البحري الاطواف) التي كانوا ينقلون عليها مختلف السلع ، ولا سيما خمر (عرق) البَاح ، كانت توضع في اتجاه تيار النهر وفي كل منها رجلان واقفان يردّها (يدفعا) كل منهما بمُرديّ (عصا طويلة تُدفع بها السفينة في النهر واسمها المعروف في مصرَ مِدْرَى)

ومن تلك السفن ما هو صغير يحمل فوق شحنته حملاً واحداً ، ومنها ما هو كبير يحمل عدّة حمير .

وكانوا متى بلغوا بابل وفرغوا من بيع ما معهم يبيعون هيكل المركب وما فيه من الحطب ، ثم يحملون جلده على الحمير ويسوقونهم امامهم حتى يعودون الى أرمينية . لأن سرعة جريان النهر لا تحذر مائه تحول دون العودة فيه لمقاومة التيار ، ولذلك كانوا يصنعون سفنهم من الجلد لا من الخشب . وعند عودتهم الى أرمينيا كانوا يصنعون غيرها على الوجه الذي سبق »

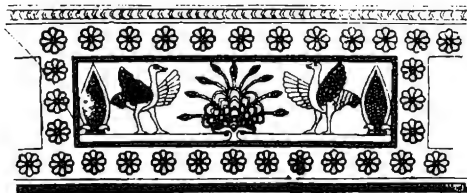
ولعل أهم صناعات بابل التي لم يجارها فيها مجار في العهد القديم هي صناعة الأنسجة من الشغوف الخفيفة . الى الانسجة المزركشة ، الى السبكة الخيوط ، الى البسُط الفاخرة . فكان ما يصدر منها إلى البلدان البعيدة يباع بأعلى الأثمان .

وقد ظلت محافظة على هذا المقام الى ان قامت اليوم سجاجيد (طنافس) أزمير
والمعجم مقام بسط بابل الشهيرة
وقد بزت بابل مناظرها أشور سواء أكان من الوجهة الصناعية أو العلمية . وإذا
كان بريق الأسلحة في ينوى مما يبر الابصار ويحير العقول ، فان ضياء العلم
وبهجة الرخاء كانا دِعامَة مَجْد بابل التي رَوَّج صَنَاعُها الماهرون ، وتجارها النشَاطي
مصنوعاتهم وبضائعهم في انحاء العالم المعروف ، فعادت عليها بالثروة الوفيرة -
قال هيرودوتس :-

« ومن الأدلة على عظمة غنى بابل : انها كانت تنفق على إطعام جيش الملك
ربعة اشهر في السنة ، وفي الثمانية الأشهر الباقية تنفق عليه البلدان الاخرى ..
فكان ثروة بابل ثلث ثروة البلاد كلها » . وقد ذكر النبي ارميا ان
الله سوف يرسل الى بابل ، اعظم مدُن العالم في العمران ، جموعاً من الامم ليُثْرُوا
من بقاياها .

على ان اسم بابل لا يزال الى اليوم مرادفاً لالفاظ الزينة، والانس، والسرور ،
والشهوات . فان توجد مدينة لها مثل هذه الشهرة الرائعة الفتانة ، حتى صَحَّ فيها
ذلك الوصف الذي وصفها به النبي ارميا بقوله :-

« بابل كَأَنَّهَا ذهب بيد الرب ، تُسَكَّر كل الارض . من خمرها شربت
جميع الشعوب » .



الباب الخامس

النظم السياسية والاجتماعية ، والاخلاق والعادات

١ - النظم السياسية والاجتماعية

كانت الحياة السياسية والاجتماعية عند

الآشوريين والبابليين متشابهة

نعم انه كان بينهما في أول الأمر اختلاف يتناول
الاخلاق ، والنظم ، والمنشأ ، والطباع ، ولكن كل
ذلك زال أخيراً فاندججا اندماجاً تاماً . ورغم تغلب



العنصر السامي بما كان له من القوة ، فقد ظل تأثير الذكاء الكلداني القديم سائداً
من بعدهم في أبنائهم وذرائعهم .

وهكذا كانت مظاهر القوة منتشرة في آشور . أما في بابل فإن حضارتها
حالت دون انهيارها ، حتى في مدى القرون التي ظلت آشور متحكمة فيها .

على أن موقع كل منهما الجغرافي كان سبباً لتوجيه نشاط كل منهما الى وجهة خاصة
مختلفة . فقد كان البابليون أعظم أم عصرهم في الملاحة ، لان كلاً من دجلة والفرات
كان يصب في الخليج الفارسي ، فانفتح امامهم الطريق الى شواطئ البلاد البعيدة .
كالهند الغنيبة بكنوزها ، والحبشة بذهبها وطوبىها وعطورها

أما الآشوريون فلم يبنوا بالملاحة نظراً لإقامتهم في الجزء الأعلى من
أرض الجزيرة .

على أن فتوحاتهم وانتصاراتهم مكنتهم من القبض على زمام الملاحة في صور

وبابل ، وبتسلطهم على سواحل كلدة وفينيقية أصبح البحر أيضاً خاضعاً لسلطانهم وكان بينهما اختلاف آخر ، تذكره قبل أن نخوض في النظم المديدة التي كانت عامة بينهما . وهذا التباين كان في شكل الحكم عند كل منهما . ففي بابل كان أقرب الى رجال الدين منه الى غيرهم ، بخلاف نينوى التي كان صولجان الحكم فيها بيد الملك وحده .

وكانت حكومة اشور ملكية حرية وبقاؤها استدعي هذا النوع من الحكم ، لأنها كانت مملكة شاسعة الأطراف ، بعيدة الحدود ، مؤلفة من كثير من العناصر المختلفة ، فلم يمكن تماسكها الا اذا قبضت على أزمة الحكم فيها يد من حديد . ولم يكف ملك نينوى أن يكون قاسياً مستبدًا ، بل كان عليه أيضاً أن يكون فاتحاً مغواراً ، لا ينفك عن الغزو وشن الغارات . والبلاد التي تمكن من إخضاعها لصولجانه كابل وأرمينية وفينيقية وفلسطين كانت بلاداً وثابة تأنف من ذل الخضوع لسواها ، فكان وقوفه عن هذه الحركة لحظة واحدة يفضي الى انسلاخ بعضها ، بل والى انتفاضها جميعاً فتصبح آشور من جراء ذلك أثراً بعد عين .

ويكفي أن تحرز هذه الأمم المغلوبة انتصاراً واحداً لتزحف على تلك المدينة الجبارة العاتية ، نينوى ، وتغادرها خراباً يباباً

لذلك كانت سلامة نينوى وحياتها في مواصلة تلك الغزوات التي لم تقطع حتى آخر أيام حياتها . ولما سقطت لم تقم لها قائمة بعد سقوطها .

على أن الأسباب التي جعلتها مدى القرون الطويلة سيّدة العالم ، هي ذات الأسباب التي قضت عليها بالدمار والفناء . ولذلك ترانا حين نقرأ وصف ديودورس لاستكانة ملوكها الى حياة الخمول والبطالة وانغماس « ساردانابال » في اللهو والدعارة ، لانظن الا اننا نطالع خرافة ، قال هو نفسه انه نقلها عن ستيدياس (Ctésias) . أما اليوم ففي متناول أيدينا من الشواهد ما هو أصح بما لا يقاس من رواية هذا المؤرخ الاغريقي ، لانها منقولة عن القوش الاثرية التي تظهر لنا ملوك اشور الحرييين شجعاناً لا يتطرق

الى نفوسهم وهن أو ملل ، غلاظاً قساة القلوب لا يهدأون عن الحروب الهائلة إلا إذا أرادوا أن يتسللوا بصيد أضرى أسود الصحراء وجهاً لوجه .

وإذا أمكننا أن نصدق ملق الملقين من جلسائهم ، حسبما يظهر من القوش التى على آثارهم ، ترى ان ما يذكر عن انصرافهم الى الغزوات والحروب المستمرة يجعل رواية ديودورس عن الملك سردانا بال في حكم الاستثناء ، هذا اذا سلمنا بحقيقة وجوده . وقصة هذا الملك التى لم يؤيدها أي مصدر جدير بالثقة ، ذائعة مشهورة بحيث يكون من التفسير إغفالها ، ولذا فانا نرويها هنا كما هي : -

« سردانا بال الملك الثلاثون من عهد « نينوس » وآخر ملوك الاشوريين برّ من « سبقة من الملوك في الدعارة والانغماس في المذات . فلم يتورّع عن التجرد من ثيابه امام « أعين شعبه ، بل كان يعيش عيشة النساء ، صارفاً وقته بين محظياته ، مرتدياً ملابس « النساء ، ملطخاً وجهه بالاصباغ الحمراء . وبدنه بالدهون والمسايق كالتي كانت « خليلاته تستعملها . وكان في حركاته غنج وتكسر ودلال ، وفي صوته نبرات صوت « المرأة . وقد أطلق لنفسه عنان الشهوات الجنسية بلا خجل ولا استحياء ، وانغمس « في حمأة الفسق والفجور انغماساً شديداً ، حتى انه كتب بنفسه ما أوصى بأن يُنقش « بعد موته على قبره بلغة غريبة ترجها مؤخراً إغريقى وهذا نصها : -

« أيها المارث بقبري ، تذكر انك است من الخالدين ، وافتح صدرك « للهو والسرور لأن لا تتمتع بعد الموت . فانا الآن است الأترباً ، بعد ما « كنت ملكاً عظيماً على نينوى العظمى ، ولكنني قد هتأت بما أكلته من طعام ، « وشربته من خمر ، واستمتعت به من لذات الحب والغرام ؛ ولم أفقد سوى « سلطاني وكنوزي »

وليس في كل ما عثر عليه المتقون الى الآن من الكتابات في خرائب اشور ما يؤيد هذه الوصية . لان الحجارة التى كانت تُقام لتخليد ذكر ما أحرزه الملوك من الانتصارات ، وما وُجد على جدران قصورهم من الكتابات كان يشيد بأعمالهم الحربية ، ولا يذكر شيئاً عن هههم وملذاتهم .

ويظهر ان الاشوريين كانوا أسبق من غيرهم في التحرُّر من ذُكر النساء علانية ، كما نشاهد ذلك الى الآن في أغلب بلدان الشرق ، وهو عدم التحدُّث عن الزوجة الا تلميحاً ، أو ذكر اسمها الحقيقي . وسنرى ان البابليين كانوا على عكس هذا الرأي .

فالسيد الاشوري كان له من شوكتة الحربية ، بل ومن قسوته وشدة بأسه ما يجعل غيره على احترامه وطاعة أوامره .

ولقد قابلنا فيما سبق بين وحشية نينوى ومدينة بابل ، وتقدير أهلها للفنون الجميلة . ثم توجد مشكلة يجب ألاَّ يفوتنا ذكرها ، وهي ان ما من شعب أمّن مثأله وكُتّابه في التعنّي بوصف أفظع المذابح والعذابات كالشعب الاشوري . فقد كانوا يرصدون على لوحات الآجر عدد الرؤوس المقطوعة أو الابدان المتورة أطرافها ، أو صفوف الاسرى المربوطون ببعضهم بواسطة حلقات معدنية مثبتة في شفاهم أو أنوفهم ، وهم وقوف في انتظار حكم الملك الواقف امامهم واضعاً قدمه على جبين أقرب أولئك النساء اليه ، منهمكاً في ابتكار نوع جديد من العذاب يصبّه عليه . أو يتناول قضيباً قيفقاً به عيني أسراه ، بينما نرى على مقربة منه صفّاً طويلاً من خوازيق مثبتة في ابدان غيرهم من الاسرى ، وآخرين مطروحين على وجوههم مربوطة أرجلهم وأيديهم في أوتاد بينما يسلمح الجلّادون جلودهم وهم على قيد الحياة . ولقد اهتم مصوِّر هذه الفضائع الجهنمية بايضاح هذا النوع الاخير من التعذيب ، لان ذلك كان أحبّ من غيره لدى الاشوريين . فأظهر الجلّاد وهو يَشُقُّ بجدٍّ سكينه بعض الخطوط قبل أن يباشر عملية السِّلْخ ، كأنه لا يريد أن يشوّه الكتلة اللحمية التي ستبقى بعد نزع الجلد لتعليقها على اسوار القصر كتذكّار نُصْر . وقد عثر المتقّبون على لوحة حجرية فيها رسم نائِقٌ يُمثِّل ملكاً ومملكة ، ينعمان بتناول الطعام ، في ظلّ عريش في بُستان ، وخلفهما الحصيان يروّحون لهما بمراوح الريش الثمين ، وهما يتبادلان كؤوس المدام ، ونظرات الغرام ، وأمامهما يتدلّى من أحد الاغصان الوارفة رأس ملك أسير جاحظ العينين ما زالت الدماء تقطر منه



وبعد أن تنتقل ، كما فعلنا في هذا الكتاب ، من أرض مصر الساحرة ، لنجوب هذا البلد الذي كان من أوائل البلدان التي صهرت الحديد والفولاذ ، وبفضل ماطرته أهلها منها سيوفاً بآترة ، وآلات قاطعة ، تمكنت من الارتواء بدماء جيرانها الأبرياء قروناً عديدة ، تشمر بالهلع والرعب والاشمئزاز من هؤلاء الأقوام الساميين ، أقوياء الابدان ، فطس الأنوف . عند ذلك تذكر البون التاسع بين هذا وبين جمال ورقة ملامح الرؤوس الفرعونية التي لم تكن تقل حُسناً عن رؤوس أجهل النساء وأجسامهن الرشيق وقاماتهن النحيله المياسة التي نرى رسومها على جدران السرايب والهاكل وهم منشغلون في عبادتهم الهادئة البريئة . وكذلك نذكر اشباح أولئك النسوة الجليات التي تزين ظلام القبور في وادي النيل .

نعم ان مصر كانت تفيض باسمى مظاهر اللطف والبهجة منعكسة عن جمال نساها ، اما في ما بين النهرين فلا نرى شيئاً من ذلك ، لان الاشوريين قلما اهتموا بتصوير المرأة . على ان ما تركه لنا مثألو بابل من صورها لا ينم الا على دمامة وجهها ، وكذلك ثيابها الطويلة السمكة السمجة كانت تخفى تقاسيم جسدها . كان ملك اشور يُعتبر المصدر الذى ينبعث منه كل ما يخص بالمسائل الدينية او بالحياة الحربية او بالانظمة المدنية في كل اشكالها وانواعها . فهو ظل الاله الاعظم « اشور » على الارض . يقوم بخدمة شعائره الدينية كخبز أخبار ، ويقود جيوشه ليخضع شعوب العالم لثير سلطانه .

وكان الاشوريون لا يميزون بين الالههم وملكهم . فاحترامهم للملك كان اشبه بالعبادة . ولم يكن أحد من أفراد الشعب يجرؤ على توجيه الكلام اليه ، فلم نر على الرسوم البارزة سوى الوزير الأكبر او رئيس الحصان يتحدث اليه .

أما في بابل فقد كان الملك يخضع للكهنة المحيوس أبناء قدماء الكلدانيين وحفظة كنوز العلوم التي انتقلت اليهم بالتوارث ، بنظام حكومة الخاصة ، التي يقول عنها ديودورس انها لم تقبل بينهم غريباً عنهم . ولكن التوراة قد ذكرت ما ينفي ذلك ، وهو ان دانيال النبي كان من زمريتهم مع انه كان غريباً عنهم وفي كتاب هذا النبي اليهودى وصف بليغ لسلطة أولئك الكهنة الذين كانت

أكبر مهام الأمور الدينية والمدنية تسند إليهم ، حتى أن الملك نفسه لم يعمل إلا بأشارتهم حسبما كان يظهر من تفسيرهم الأحلام ، أو قراءتهم الغيب باستطلاع الكواكب .

على أن النعرة الحربية التي كانت من أبرز صفات آشور لم تلبث أن انتقلت أخيراً إلى بابل ، حتى أن هذه المدينة المترفة ، المولعة بالعلم ، جارت في أيام الامبراطورية الثانية عدونها الشمالية في قسوتها واطماعها ، وحملت أرميا النبي على أن يلقيها « بمطربة العالم »

ولقد تمت وارتقت عندئذ بسرعة ، ولكنها لم تلبث أن سقطت على أثر ذلك الارتقاء والصعود بذات الاسباب التي رفعت نينوى وأسقطتها وكان ولاية الممالك الشاسعة التي اسمها آشور بانيال ونيوخذ نصر ينزعون دائماً إلى الاستقلال والعصيان ، وكان نزوعهم هذا من أسباب الخطر الوجبة على الملك ، ومن ثم اضطراه إلى التسلط المستمر عليهم بيد من حديد .

ولقد روى لنا ديودورس شيئاً من هذا الأسلوب الإداري الذي كان متبعاً في هذا الحكم ، نذكره في ما يلي ، لأننا لم نعتز على سواه :-

« كان الملك ، لاستتباب الأمن في بلاده ، وأخضاع الشعوب لسلطانه ، يؤلف كل سنة جيوشاً يختار قوادها من كل عاصمة من عواصمه ، تعسكر خارج كل مدينة . ثم يعين لكل إقليم حاكماً من المخلصين له . وهذه الجيوش تسرح كل سنة إلى أوطانها ليقوم غيرها مقامها . وهكذا كانت الشعوب المختلفة مضطرة إلى احترامه لأن الجيوش كانت تعسكر على مقربة منها مستعدة دائماً لتأديبها

وكان هذا التجنيد السنوي المتجدد لا يسمح للقواد والجنود أن يتعارفوا لقصر المدة . فبأن الملك كيدهم له وخروجهم عليه . ومن أولئك القواد تعين للبلاد ولاية يفصلون في شؤونها المختلفة من دينية وإدارية وقضائية وغير ذلك »

على أننا لا نعلم شيئاً عن نظام الجيوش الاشورية ، ولا نعلم إلا قليلاً عن خططهم الحربية ، ولكن القوش توقفنا على شيء كثير من أسلحتهم وعتادهم بحيث يمكننا أن نتصور علو كعبهم فيها بالنسبة لسواهم من معاصريهم

وكان سلاح دفاعهم يتناول الخوذة ، والدرع ، والترس ، والاحذية
المتينة المرتفعة

اما سلاح هجومهم فكان القوس ، والسيف ، والرمح ، والمقلع ، والمزراق ،
والمنجنيق ، والكبش ، وهذه كانت بالغة من الاتقان على قدر ما وصلت اليه يد
الامكان في ذلك الزمان .

وكانت الجنود تنقسم الى قسمين ، المشاة والفرسان ، علاوة على المركبات الحربية .
وكانت جيوشهم دائماً كثيرة جداً ، وهذه الكثرة في العدد تؤمّن ما ينقصها
من النظام . ويمكن أن تصوّر جيوش اشور وبابل تلك الحشود عدية النظام التي
كان الملك اكرزكيس يقذف بها الاغريق

ومهما اتّسع مجال التصوّر لا يمكننا أن نصدق ديودورس في وصفه لجيوش
سميراميس الجرارة ، وعددها الهائل ، حين أرادت غزو الهند : قال ، نقلاً
عن ستيبياس : -

« كان جيشها يتألف من ثلاثة ملايين من المشاة ، وخمسمائة الف فارس ،
ومائة الف مركبة حربية ، عدا مائة الف رجل ، كل منهم يركب جملًا ويحمل سيفاً
لا يقل طوله عن اربعة اذرع . »

ولقد كان للأشوريين ، والبابليين على الخصوص ، مهارة فائقة في فن الحصار ،
يستعينون عليه بالآات حربية خاصة بذلك ، نراها منقوشة على آثارهم .

وكان مصدر عظمة هاتين الدولتين في ارض الجزيرة قوة الجيوش ونشاط
التجارة . واذا كانتا قد روّعا الشرق بمركبات الحرب والفرسان والجيوش الجرارة
أجيالاً عديدة ، فإن حركة تجارتهما التي عمته كانت سبباً من اسباب ثرائه وعظمته .
ولقد ذكرنا كيف كان منشأ هذه التجارة ، وقلنا في كلامنا على الموقع الجغرافي
للإمبراطورية « الكلدانية الآشورية » ان سببها ينحصر في كلمة واحدة هي ، الطريق .
وفي الواقع ان أرض الجزيرة كانت وقتئذٍ اكبر طريق للعالم المعروف . طريق
تخلله محطّات ومستودعات ، وينتهي عند طرفه الى رأسين من بنادر التجارة البحرية
القديمة ، هما بابل وصور .

وكانت اسواق « صُور » بسبب وِلاحتها ، تجمع كل حاصلات البحر المتوسط من الاقشة ، الى الانسجة المصرية المزركشة ، الى حديد قبرُس ، علاوة على الآنية النحاسية الجميلة ، والخيول ، والجوارى الأغر يقية ، والفضة الأسبانية وكان ملاحوها ينحدرون حتى جزر الكاسيتيريد (Cassiterides) على مَقرَبة من شواطئ ، بريطانيا العظمى لجلب القصدير .

وكانت صور مع ذلك تضم الى هذه الواردات النفيسة ما تخرجه مصانعها ، ومصانع جاراتها من التحف ، وما كانت تعرضه في تلك الأسواق مما يخرج من حاصلاتها وحاصلاتهن الزراعية ، كالاقشة الارجوانية ، وخشب الأرز اللباني ، وأصواف دمشق الملونة ، والحنطة ، والعلطور ، والعسل ، والزيت ، والراتينج الاسرائيلي ، وخراف وكباش ومعز قبايل العرب الرحّل .

اما سُمن بابل فقد كانت تقصد الخليج الفارسى او الاقيانوس الهندي عند جزيرة أوفير الغربية لجلب اللؤلؤ ، وتُجلب الذهب والعاج وخشب الآبنوس من بلاد الحبشة ، والعلطور ، والثقف ، والشيلا ن الثمينة ، والاحجار الكريمة من الهند .

وكانت هاتان المدينتان العظيمتان تتبادلان هذه التحف ، وتُتجران بها مع القوافل التي كانت تزدحم بها طرق بلاد ما بين النهرين . وهكذا كانت آسيا العليا تغص بالمستودعات العديدة التي كانت يقصدها طلاب الرفاهة والتنعم ليأخذوا حاجاتهم منها تاركين بدلها اكداً من الذهب .

على انه لم يكفِ بابل ونيوى ان تكونا مع صُور سماسرة تجارة العالم ، بل كانتا تُتجران من مصانعهما الطائف النفيسة والمنسوجات المطرزة ، وسروج الخيل الفاخرة والأثاثات الثمينة . وقد سهُل نهر دجلة والفرات ، والقنوات المتفرعة منها ، نقل البضائع على « السفن » التي تَمُخر هذه المسالك المائية مختقرة سهول وحقول ارض الجزيرة ، كما نشاهد مثل ذلك في هولندا الآن . وربما كانت لفظة « اطواف أو عربات » اصح من لفظة « سُمن » التي استعملناها لما كان يُصنع من المراكب في بابل وآشور لتجرى في مياه الانهر ، وظلت زمناً طويلاً عبارة عن الواح خشبية مشدودة بعضها الى بعض بجلود منفوخة . ولكن هذه المراكب تحولت فيما بعد الى

ما يشبه سُنَّ الفينيقيين ، واستخدمت لنقل المثلثات كالحقول والمركبات والاحجار الكبيرة ، كما ظهر لنا من الرسوم ، ومما ذكره ديودورس ، اذ قال :-

« إن سميراميس قد اقتطعت من جبال أرمينية قطعة من الحجر طولها مائة وثلاثون قدماً وسمّنها خمس وعشرون ، جرّتها البغال والثيران على شاطئ الفرات . ثم شجّنت على طوف كبير وانحدرت مع التيار الى بابل ، وهناك نصبتها في أشهر مكان مطروق . وهذا الأثر الذي كان موضع إعجاب السياح ، والذي اطلق عليه بعضهم اسم « المسلة » نظراً لشكله ، يُعدّ من عجائب الدنيا السبع »

وذكر هذا المؤرخ قبيل ذلك انه كان على شواطئ النهرين مستودعات لما كان يرد من البضائع من مادی والبلدان المجاورة لها .

وقد وصف هيرودوتس ذلك الطريق الطويل الذي يصل العالم الغربي بالشرقي ، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الى الخليج الفارسي .

نعم انه كان لهذا الطريق مسالك كثيرة ، ولكن لا يزيد أهمها عن ثلاثة أو أربعة . وقد أشرنا سابقاً الى أحدها وهو المسلك الحربي بين مصر ونيوى ماراً بجندو وكاركيميش . والآث نذكر ما أشار اليه هيرودوتس واصلاً بين ساردس وصوص ، لاننا لا نغالي اذا قلنا ان وادي الفرات ودجلة كان أكبر طرق العالم القديم ، وانه كان أول سبب من أسباب نشأة نيوى وبابل وحضارتهما ، قال :

« وعلى طول هذا الطريق مساكن ملكية (ستاذم stathmes) وفنادق عامرة جميلة . وهذا المسلك المأمون يخترق بلاداً أهلة بالسكان . وهكذا يبدأ السفر من ساردس من ولايات ليديا في فريجيا (Phrygie) حيث نرى نحو عشرين قصرًا . ومتى برج المسافر فريجيا عرّج على « هاليس » حيث يقف عند أبوابها التي لا يمكنه عبور النهر بسلام بدون المرور منها . على ان هنالك حصناً عظيماً قائماً لحراسة هذا الممر . وبعد ذلك يخترق كبادوس الى حدود سيليسيا مسافة ثمانية وعشرين يوماً . ولكن المسافر مضطّر عند هذه الحدود أن يجتاز مضيقين ،

وأن يَمُرَّ من حصنين ، ثم يسير بعد ذلك مسافة ثلاثة أيام في سيليسيا (Cilicie) التي يفصلها عن أرمينية نهر الفرات ، فيعبره بالمرالكب .

أما أرمينية فإن فيها خمسة عشر فندقاً (Statihmes) عامرة بالجنود ، ويستغرق اجتيازها خمسة عشر يوماً . ويروي هذه البلاد أربعة أنهر تصلح للملاحة ، ولا بدَّ من عبورها . وأول هذه الأنهر دجلة ، وبهذا الاسم يُعرف ثانيهما وثالثهما وإن كانا يختلفان عنه ولا يخرجان من البلد الذي يخرج منه ، لأن احدهما يخرج من أرمينية والآخر ينبع من أرض المِثْيَانِين (Matianien) . أما النهر الرابع واسمه « جِند » (Gynde) فقد قسمه سيروس (Cyrus) الى ثلثائة وستون قناة . ومن أرمينية يدخل المِثْيَان (Matiane) ويقطعها في نحو أربعة أيام . ثم يجتاز المسافر بعد ذلك « سيسي » (Cissie) في أحد عشر يوماً حتى يبلغ نهر شوازب (Choaspe) الذي تقوم على ضفتيه مدينة سوز (Suse) . فمن ساردس الى سوز يستغرق السَّفَر مائة وأحد عشر يوماً ، ويمرَّ المسافر بمائة وأحد عشر فندقاً (خاناً) . «

وإذا كان موقع بابل وأشور الجغرافي قد ساعد على نجاح التجارة فيها ، فإن طبيعة أرضها أجبرت سكانها على توجيه العناية نحو الزراعة . وبما أن هذه السهول الزمليسة لم يكن يرتجى منها خير إلا بداومة الاهتمام بريةا على نظام واسع ، فقد كانت في وقت ما تخترقها الترع والقنوات من كل الجبات . وفي الجزء المنخفض من بلاد الجزيرة كانت القنوات في مستوى سطح الارض ، أما في اشور حيث كانت الأنهر أكثر انخفاضا من الاراضي فقد مست الحاجة الى استعمال وسائل متنوعة لرفع مياه الرِّي . وكان المحراث البدائي هو المستعمل في الفلاحة ، لأن طبيعة الارض وقتئذٍ لم تكن تتطلب ما هو أفضل منه .

أما محصولاتها (أشور وبابل) فواحدة تقريباً ، أكثرها الحبوب كالخطة والذرة والجاودار ، واسكن اشور كانت تمتاز على بابل بمجودة خمرها ، كما أن بابل كانت تمتاز بالبَلَح (التمر) ، وربما كان غرس النخيل أهم أعمال أهل بابل . وقد روى هيرودوتس أنهم كانوا يربطون شاريخ الفُعَّال (الذكر) الى شاريخ الانثى ليتحققوا من التلقيح . أما النقوش التي وُجدت في بابل وأشور فإنها خالية من الإشارة الى الزراعة

والتجارة مع انهما كانا أعظم أنشغال أهل البلاد . ويظهر ان الفن (الرسم والنقش) في هاتين العاصمتين الشاحتين أهل عامة الشعب فلم يهتم بالزراع والصناع والتجار وانصرف الى الاهتمام بتخليد ذكر الآلهة والملوك والحاريرين . ولكن الآثار الخطيئة التي وُجدت في مكتبة « آشور بانيبال » الخاصة بالحقول والمزارع ، وعقود البوع والرهون العقارية ، أبدت رواية أولئك المؤرخين اليهود والاغريق الذين تغنوا بمهارة سكان أرض الجزيرة (العراق القديم) في الشؤون الزراعية والمالية . ويجب ألا يغيب عن البال ان أغلبية سكان هذه البلاد كانت من العنصر السامي الذي اشتهر بدعائه وسعة حياته ومن أمثلة ذلك قصة يعقوب (صغرة أولاد اسحق) الذي انتهز فرصة جوع أخيه البكر عيسو ، فاشتري منه بكوريته بأكلة عدس ^(١) . فيلها من صفقة تجارية رابحة تُبرهن على ما لهؤلاء الناس من المهارة في انتزاع النّز. نعم ان حُب الكسب والتجارة غريزي في نفوس الساميين مُنذ القدم ، ولكنه حُب يقتضي الكثير من الحرص والصبر والجلد ومواصلة العمل . فالسامي إما ان يكون تاجراً أم مُرابياً . ولوحات الآجر التي وُجدت في قوونچك (Koyoundjik) تؤيد ذلك . ويظهر منها ان سعر فائدة القروض كان باهظاً حتى بلغ ٢٥ ٪ . وكان توقيع الكثيرين من الشهود على العقود والحجج والالتزامات باختامهم أو بأظافرهم ، كما جرت به العادة عندهم ، يدل على ان ذلك كان يجري علانية وبطريقة مألوقة . فمن ذلك مثلاً صورة العقد الآتي : -

« عقد بيع منزل بأخشابه وأعمدته ومُهمّاته كائن في مدينة نينوى . يحذّهُ منزل « مانوكي آهي » ، ومنزل « أنكيبا » ، وميدان الأسواق . وقد اشتراه المدعو « سيل عاشور » المصري الجنس من « أخصورو » ومن المرأة « أمات سولا » زوجة بعلمها ، بمنجم . فضة في سارلادوري « الخ ، وقد وقّع على هذه الحجة سبعة « من الشهود ، علاوة على توقيعات المشتري والبائعين . »

ومن النظم السياسية والاجتماعية للشعوب الكلدوآشورية ، وغير ذلك من الأدلة التي لدينا ، نعلم أن سكان كلدة الأصليين قد اندمجوا وتلاشوا في الساميين . وهذا ما يحدث دائماً في مثل هذا الامتزاج بين الشعوب ، وهو أن نفوذ الجنس الأكثر ذكاء وثقافة يثبت رغم اندماجه في الأكثرية الهمجية ، ولذا نجد أن آشور قد احترمت مدنية وعلوم قدماء الكلدانيين ، واستوعبت كل ما وسعها استيعابه منها . ولكن طابع الساميين الخاص كان السائد في كل ما يتعلق بالشئون الاجتماعية والسياسية ، وهذا الطابع الخاص هو الغريزة والنصرة الدينية والحريية ، وكذلك الحشونة والجفوة والشغف بالربح والتجارة ، مع التجرد من الذوق الفني .

٢ - الأخلاق والعادات

إن ما نعلمه عن حياة البابليين والآشوريين الخاصة أقل مما علمناه عن حياة المصريين ، لأن النقوش الملونة على مصاطب الأخيرين ، ودهاليز مدافنهم ، لا مثيل لها عند الأولين



ثم أن المقابر الآشورية لم تحفظ بشيء من الأسرار العجيبة التي وجدناها في وادي النيل ، ولكنها مع ذلك هدتنا إلى شيء كثير .

ولقد وصفنا فيما مضى هذه الاوعية الفخارية الضخمة التي كانوا يستعملونها كتوابيت الموتى عند ضفاف الفرات ، فهذه إما أنها كانت أغنية تبلغ نحو سبع أقدام طولاً وثلاث أقدام عرضاً . وقدمين ارتفاعاً ، مغطاة أرضيتها بطبقة من الغاب يُسَطِّحون عليها الموتى ، وإما أنها كانت عبارة عن وعاء من قطعتين يضعون فيه الجثة بعد أن ينثون ساقها عند الرُكْب .

وهناك شبة أقية خاصة بالأسر ، مبنية من الآجر ، وقد وجد في بعضها أحد عشر هيكلًا عظيمًا

وهذه المقابر المختلفة وجدت دائماً مطمورة في الأرض في روابٍ وتلال . وأرض كلدة غاصة بمثل هذه المرتفعات ، حتى أنها اكتسبتها تحمل الانسان يظن انها أرض مقدسة اتخذها الآشوريون لنومهم الأبدي .

وقد وجدوا كل واحد من هذه الهياكل العظمية ممسكا يده اليسرى وعاء من النحاس ، وبقرية أطباق من الآجر أو المعدن لا يزال فيها أثر الطعام ، كنوى البلح ، وشوك السمك ، وعظم الطيور ، لأن القدماء كانت معتقداتهم تدفعهم الى دفن هذه الأطلعة مع الموتى كزاد ل سفر طويل نحو المجهول . وما عدا ذلك فقد سكنت عنه هذه القبور

على أن هذه النقوش التي اسميت في تفصيل ما يتعلق بالجيش والحروب ووحشية التنكيل بالأسرى وما إلى ذلك لم تذكر لنا إلا شيئاً قليلاً عن تلك الحياة الاجتماعية

وبالرجوع الى النقوش البارزة أو الى روايات المؤرخين الأغريق نجد ما يروي غاليليا عن حياة أهل نينوى وبابل الخاصة .

ولكننا نقدر أن نستنتج من ثخامة ملابسهم وعدة خيولهم ودقة أسلحتهم ان كثيراً من الصنائع المختلفة كان زاهراً في العاصمتين ، وأن وسائل الترف والزينة كانت منتشرة فيهما انتشاراً كبيراً .

وهاك وصف هيرودوتس لبعض ملابس البابليين :

« كانوا قبل كل شيء يرتدون قمصاناً طويلة من الكتان تصل إلى أقدامهم وفوقها قمصان أخرى من الصوف ، وفوق ذلك عباءة من نسيج أبيض .

اما أحذيتهم فقد كانت تقرب من أحذية سكان بيوتيا (Béotiens) . وكانوا لا يقصون شعورهم بل يتركونها مُدَّة ، ويضعون على رؤوسهم قلانس على شكل التيجان ، ويتدلىكون بالطيوب .

ولكل منهم خنم ، وعصاً مصنوعة باليد ، في رأسها شكل تُفَاحه أو وُزْدَة أو رُبْقَة أو عُقاب ، أو أى صورة أخرى ، لأنه كان محظوراً عليهم حمل عُصَي ليس لها زخرف رمزي »

وهذا الحظر الغريب المختص بجمالية العُصَي لم تقب معرفة سببه عنا ، مع أن هيرودوتس لم يذكره ، وذلك لأنه كان موجهاً الى الأختام دون العصي ، إلا إذا كانت أيدي العُصَي صالحة لأن تقوم مقام الأختام عند اللزوم .

وقد رأينا كيف كان كل شخص يهتمّ لمثل هذه العلامات الشخصية التي كانت تقوم مقام التوقيع القانوني لبصم الاجر الطرى ، حتى ان الاقدام على تقليدها كان بلا شك محرماً كما هو الحال عندنا بخصوص الاختام التجارية والعلامات الصناعية المسجلة. أما الثياب التي ذكرها المؤرخ الاغريق فكانت ممّا ترتديه الطبقة المتوسطة من الشعب ، لان ملابس الكهنة والملوك كانت أغزر وأثمن من تلك ، كما يظهر لنا من الرسوم التي وجدت على آثارهم . ففيها نرى ان ثياب الكهنة أو الملوك كانت أطول من ثياب افراد الشعب ، وكانت موشاة ومزركشة بالقوش البديعة ، واطرافها محلاة بالرسامات والهدّاب . وهذا النوع الاخير من الزركش كان يُعتَبَرُ في ما بين النهرين آخر أزياء الرشاقة والاناقة ، وكانوا يخلّوون به ملابس عظماء الدولة ، وعُدّة الخيل التي تجرّ مركبات الملك الحربية .

وكانت طبقة العائمة تدبر حافية الاقدام ، عارية الرؤوس ، اكتفاء بشعورهم الكثّة لوقاية هذه الرؤوس من تأثير حرارة الشمس . أمّا الكهنة وكبار رجال الدولة ، ولا سيّما رجال القصر ، فكانوا يَعمَرون بقلانس تختلف اشكلها باختلاف مراكزهم واعمالهم . أما الملوك فكانت تيجانهم تُشبه ما يلبسه الفرس الآن (Tiara) . أما لبس العال فكان مقصوراً على الامراء والاثرياء ورجال الحرب . وهذه كانت على اشكال متنوعة ، منها الصنّدل أو الفرقة ، والحذاء العالي الذي يصل الى مافوق الركبة .

ولقد كانت للاشوريين من جميع الطبقات أدقّ عناية بشعور رؤوسهم ولحاهم . فن المالك الى البقار ، ومن السكاهن الى الفلاح ، تظهر رؤوسهم كأنها خارجة توتاً من دكّان المزّن ، ولم يكن يعوقهم عن الاهتمام بزينة شعورهم أي أمرهما عظم شأنه . وكانوا أحياناً يربطون شعورهم الكث بشُرط أو عصائب زينية ، أو يمشطونها ليرتد الى الخلف وينزل على القفا في صفوف منتظمة من الخصل المجعّدة . وكذلك كانت لحاهم طويلة مجمّدة تجعّداً مُحْكَمًا كأنه بمكواة شعر .

وكانت شعور ولحي الاشوريين والساميين تتشابه من حيث الكثافة والجمودة الطبيعية في الشعر المسترسل .

أما المرأة في ما بين النهرين فانتا لانعرف عنها في إبّان مجد بابل ونبوى الا نزر اليسر ، لانتا لم نجد في أي مكان وصفًا لجهاها وملابسها ، وما كان عليه ذوقها ، وكيف كانت تقضي وقتها . ولكن ذلك لا يمنعنا من الحكم بأنها كانت ، ككل بنات جنسها ، كثيرة الاهتمام بكل ما يزيد محاسنها ، مستعينة بالاقشة والعليّ والعمور ، وكل ما يشفي غليل ولها بالدلال والفتج . فالمرأة في نبوى القويّة ، أو بابل الداعة ، لابدّ أنها لم تكن لتدعن لفتيات صهيون المتعجرفات اللواتي أتى ذكرهنّ في الاصحاح الثالث ، والعدد السادس عشر ، من نبوءة أشعيا ، حيث قال :

« وقال الربّ ، من أجل ان بنات صهيون يتشامخنّ ويتشامخنّ ممدودات الاعناق »
 « وغامزات بعبونهنّ وخاطرات في مشهينّ ، وبخشخشنّ بأرجلهنّ ، يضلّع السيّد »
 « هامة بنات صهيون ، ويعرتي الربّ عورهنّ » ، وينزع السيّد في ذلك اليوم زينة
 « الخلاخيل والصفائر والاهلّة ، والخلق والاساور والبراقع ، والعصاب والسلاسل
 « والمناسق ، وحناجر الشّمّامات والاحراز ، والخواتم ، وخزائم الانف ، والثباب
 « المزخرفة ، والمطّف والاردية والاكياس . والمراني والقمصان والعائم والأزرر . »
 على ان استعمال الخليّ والعمور لم يكن مقصوراً على النساء . فقد مرّ بنا ما ذكره
 هيرودوس ، وهو ان أهل بابل جميعاً ، اناثاً وذكوراً ، كانوا يتدأكون بالطيوب ،
 أما الاشوريون فقد رأينا من الرسوم المنقوشة انهم كانوا يتحلّون بالمعود والاساور
 والدمالج والاقراط ، فهم بلا شك قد أخذوا عن الساميين هذا الشغف بالتحليّ بهذه
 الخليّ الغالية .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان أهل نبوى كانوا أصلب عوداً وأكثر خشونة وجفوة
 من أهل بابل ، حتى ان عظامهم كانوا يزهدون في نعيم القصور فيهجرونها الى ساحات
 القتال ، ومنها الى ميادين الصيد والقتص حيث ينزلون أشرس الحيوانات المفترسة
 وجهاً لوجه .

وربما كانوا يحجرون على قاعدة وحدة الزواج . أما في بابل التي كانت ،
 لانغماسها في الترف والملاذات ، أقلّ تغطّشاً الى الدماء وطموحاً الى المزيد من المجد ،
 فخورة بتفوقها العقليّ ، شغوفة بكل ملاذ النفس والجسد ، تطلب السؤدد عن طريق

هبة العلم وسحر حياة الترف ، فإن تعدد الزوجات كان شائعاً خصوصاً لدى الملوك . ولما وصف النبي دانيال وليمة ييلشاصر^(١) (ملك السكلايين) ذكر أكثر من مرة ان « الملك وعطاؤه وزوجاته وسراريه » حضرن تلك الوليمة . ومن ذلك نعلم انه كان للملك « زوجات وسراري » ، وان البابليين لم يكونوا يحبون النساء . ثم ان المثاليين والنحاتين البابليين كانوا أقل حذر من اخوانهم الاشوريين في الافصاح عما يمس المرأة ، على ان ما تركه لنا فنانونهم ، وان كان لا يكشف لنا شيئاً عن محاسن المرأة فذلك لأن مثاليهم كانت على ما نظن تعوزهم المهارة الفنية ، أكثر مما كانت تقصمهم النماذج الجميلة .

على ان تعدد الزوجات عند ملوك بابل لم يمنهم من اختيار واحدة منهم لتقدم لها فروض الاحترام والخضوع بصفتها « مملكة » ، حتى ان كرامتها كانت تحول دون اختلاطها بغيرها من الزوجات أو السراري . ويمكر الاستدلال على ذلك وغيره مما ذكره دانيال في وصف تلك الوليمة الداعرة التي كان النساء يكرعن فيها الحرف في أواني معبد اورشليم المقدسة ، على نغمت الموسيقى ، وصخب السكرى وصياح المهرجين الذي يصل الى السماع « المملكة » . ثم يعقب ذلك صمت مرعج يشمل القصر وكل من فيه ، فنخرج المملكة من خدرها وهي ترتجف فرعاً وتنادي حاشيتها التي تخبرها ان رؤيا مفزعة قد ألفت الرعب في وسط الوليمة ، حتى ان ييلشاصر نفسه بقي على كرسيه ممتقع اللون خائر القوى ، يكاد يغشى عليه من شدة الخوف . ويخيل اليها ان خطراً عظيماً يهدق بالملك ، فتذكر اسم رجل ربما كان قادراً على دفع هذا الخطر ، فتدخل بيت الوليمة وتقول للملك : -^(٢)

« عيش الى الابد . لا تفزعك افكارك ولا تتغير هيئتك . يوجد في مملكك رجل فيه روح الالهة القدوسين والملك نبوخذ نصر ابوك جعله كبير المحجوس والسحرة والسكلايين والمنجمين »

على اننا مدينون لهيرودوتس ببعض تفاصيل غريبة عن بعض عاداتهم المختصة

(١) دانيال الاصباح الخامس من العدد الاول الى العدد الرابع

(٢) دانيال الاصباح الخامس والعدد العاشر وما بعده

بالزواج ، والعاهرة المقدسة . فهذا الشكل من البغاء الذي كان شائعاً في كل انحاء الشرق ، ولا يزال باقياً في بعض جهاته ، هو آخر أثر من الاضطراب الفطري الذي نشأ بين الجماعات المتعدنة . فهو من هذه الوجهة ادعى الى الملاحظة ، لان بعض الشعوب اتخذ منه سُلماً لاثبات الحق لكل انسان في حيازة أية امرأة شاء ، وهو حق تواتت عليه القرون حتى انتهى بأن صار مقدساً محترماً . وفي هذا الصدد يقول هيرودوتس :-

« وتلك كانت الشرائع المرعية عند البابليين ، وربما كان احكمها ، على ما نأظن ، هو ما ساد كره ، وكان مأثوفاً في جهات اخرى .

« كانت كل قرية تجمع فتياتها بالغات سن العاشم كل سنة في مكان معين »
« حيث يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال الراغبين في الزواج . فيأتي «الدلال» «ويوقفهن» ثم ينادى ليعين واحدة بعد الاخرى . مبتدئاً بأوفرهن جمالاً ، حتى اذا «بلغ ثمنها القدر المنتظر ، باعها . ثم عاد الى المناداة لبيع غيرها مُشترطاً على المشترين «الزواج بهن» . وهكذا كان البائعون سن الرشد من اغنياء البابليين يتنافسون في « شراء الاجمل من اولئك الفتيات .

« أما الشبان من عامة الشعب ، فنظراً لفقهم كانوا يقتنعون بالزواج من قليات »
« الحظ من الحُسن ، لأن الدلال كان عندما ينتهي من بيع الجميلات ، يبدأ بعرض «الدميمات ، والمشوهات ، وذوات العاهات ، ومع كل منهن قُدر من المال يعوض »
« ما ينقصها من جمال ، مشترطاً على من ترسو عليه الصفقة ان يتزوج بالفتاة زوجاً »
« قانونياً ، ويستعين بما ستحملة اليه من مال على القيام بأود العائلة . وهكذا كان المال «الذي يدفع ثمناً لوفرات الحظ من الجمال ، ينفق في سبيل التعويض لقليلات »
« الحظ منه .

« ولم يكن للوالد الحق في اختيار الزوج لابنته . وكذلك كان على المشتري ان يقدم الضمان الكافي على إتمام عقد الزواج بن يشتريها او يختارها .

« وفي حالة عدم الوفاق بين الزوجين يفترقا على شرط رد المال (المهر او البائنة) »
« ان امكن .

« وكان يُباح لرجال القرى او الضياع الاخرى ان يشتركوا في هذه السوق البشرية » .

« وهذه الشريعة التي سَنُوها بكل حكمة لم يُكتب لها الدوام ، وذلك لانهم فكروا في طريقة اخرى لاجتناب إساءة معاملتهم وللمنع اخذهم الى غير بلادهم . »
« فمن عهد سقوط بابل وإساءة اعداؤها الى ابنائها وضياع ادواهم ، قل من لم يفرط في عرض ابنته طلباً للمال عند الحاجة . »

« وكانت للبابليين شريعة مخجلة تحتم على كل امرأة بابلية ان تذهب مرة في حياتها الى معبد « فينوس » (الزهرة) وتقدم جسدها الى أجنبي . وكثيرات من ذوات اليسار اللواتي يأنفن من الاختلاط بغيرهن ، كُنَّ يحملن الى أمام المعبد في مركبات مُقفلة ، وهناك يجلسن وخلفهن العدد الكبير من الخدم الذين رافقوهن . »
« أما سواهن فكنَّ يجلسن في الحظيرة المقدسة التابعة للمعبد ، وبعضهن يجئن ، وغيرهن يذهبن . وكنت ترى الرجال الاجانب يتمشون في الحظيرة لكي يختاروا من تروق في أعينهم منهن . ومتى جلست المرأة في هذا المكان لا يجوز لها ان تعود ما لم يبق اليها أجنبي تقوداً في حجرها ، قائلاً لها « اني اوصي بك الالهة ميليتا (Mylitta) وكان الاشوريون يطلقون هذا الاسم على فينوس . ومهما يكن المبلغ الذي يأتي به اليهن قليلاً فليس هن ان يرفضنه لانه يصبح مقدساً . ومتى أُلقي الى امرأة منهن وجب عليها ان تتبع في الحال من القاه اليها . كما انه ليس للرجل بعد ذلك ان يتحوّل عنها الى سواها . »

« وبعد ان توفي المرأة نذرها للالهة باختلاءها بأجنبي يُسمح لها بالعودة الى مسكنها . وكانت الوفارات الحظ من الجمال اسعد حالاً من غيرهن ، لانهن لم يكن في حاجة الى طول الانتظار ، نظراً لان الاقبال عليهن كان ميسوراً ، أما القابلات الحظ من الحُسن فقد كنَّ مضطرات الى الانتظار طويلاً حتى يوفين نذورهن . وقد يطول مكثهن بالمعبد ثلاث او اربع سنوات . وهذه العادة كانت رعية في جزيرة قبرس ايضاً . »

ولما كانت الآثار لم تقدم لنا شيئاً يصح الاعتماد عليه لمعرفة حياة سكان ما بين

النهرين الخاصة ، فاننا لا نرى خيراً من ذكر ما رواه هيرودوتس عن مرضاهم ، ودفن موتاهم ، والعائشون على اكل السمك منهم ، قال :

« ربما كان أفضل ما سنّوه من الشرائع غير المختصة بالزواج هي القوانين الخاصة بالمرضى . فقد كانوا ، نظراً لعدم وجود الاطباء ، ينقلون مرضاهم الى الميادين العامة ، وهناك يصف لهم من يراهم ما يحتمل ان يكون جرّبه بنفسه او سمع عن فائدته من « علاج او دواء لمثل داء المريض . وكذلك كان يتحمّم على كل من مرّ بمرضى « ان يسأله عما يشكو منه . أما الموتى فكانوا يحطّونهم بالعسل . وكانت شعائر الدفن « لا تختلف كثيراً عندهم عما كان متبعاً عند قدماء المصريين .

« وكُلّما ضاجع بابلياً امرأته وجب عليه ان يحرق بخوراً ويجلس بقربه ، وكذلك تفعل المرأة . ثم يغتسلان عند بزوغ الفجر ، لانه لم يكن من الجائز لهما ان « يمسّا آنية ما لم يغتسلا ، والعرب أيضاً يراعون هذه العادة . « تلك كانت الشرائع والعادات المريعة عند البابليين .

« وكان ثلاث قبائل منهم لا تأكل إلا السمك . وكانوا بعد صيده يحفّفونه في الشمس . ثم يسحنوه في المساحن وينخلوه بالمناخل ، ويصنعون منه فطائرًا وخُبْزًا . « هذا كل ما امكنا ان اراده استناداً على القليل الذي عثرنا عليه قديماً وحديثاً من آثار آشور وبابل ، ولذلك لم تتمكن من الافاضة في الكلام على هاتين المملكتين كما أفضنا في الكلام على حضارة قدماء المصريين . وعسى ان يكشف لنا المستقبل ما يساعدنا على زيادة الالمام بهذا التاريخ القديم .

ويمحسن بناء قبل ان تغلق هذا الباب ان نذكر اننا لم نجد لسواد الشعب في آسيا حظاً من الذكّر في التاريخ ، لان همّ الكتّاب والفنّانين هناك كان منحصرًا في الاشادة بذكر الاعمال الجيدة التي قام بها هؤلاء الذين حلّت بهم لعنة أنبياء اليهود البليغة.



الباب السادس

المعتقدات الدينية

إن اكتشاف الخط النسخي (أو الاسفني) الذي مكّننا من قراءة النصوص البابلية والاشورية قد أحدث إنقلاباً عظيماً في آرائنا الدينية، لا يقلّ عن الانقلاب الذي طرأ على معلوماتنا التاريخية وغير التاريخية.



فقد كنّا الى أقرب عهد لهذا الاكتشاف العالمي العظيم نعدّ اليونان من حيث الوثنيّة، واليهودية (Judaism)، من حيث المسيحية، المهدان اللذان خرجت منهما أسدّ الآراء وأصوبها وأرهبها، التي أشاعت في نفس الانسان أجمل المشاعر الدينية وفتحت أمامها ابواب السعادة والتقوى والسلوان أما الآن فقد أصبح من المستحيل التمسك بتلك النظريات العتيقة. فلا اليونان ولا اليهودية جاءت بمجديد في عالم الادبّان، بل ان الذي فعله كل منهما بدوره هو تهذيب ما آكل اليه من السّاف، تبعاً لسنّة التطوّر الابدية، التي تنطبق على الآلهة والارباب، إلهة بانطابقا على البشر وسائر الخلائق على حدّ سوى. نعم انهما ادخلتا الكثير من التحسين والتغيير والتزويق والتنميق ولكنهما لم يجحدا عن الشُّبُل التي طرقها من سبقهما من الشعوب نحو «الابديّة».

وحسبنا ان تلقى بنظرنا على اهرام مصر، او نطالع أناشيد هوميروس الاغريق لنحكم باستحالة قيام مثل تلك الآثار العجيبة عفوّاً على أيدي أناس متوحشون ما زالو يعيشون على الفطرة لقرب عهدهم بيّد خلق الانسان. وكذلك عندما نشاهد عظيمة «يَهْوَه» (الله عند العبرانيين)، او جمال الاوليا عند الاغريق ندرك ان فكرة الألوهية لم تنبثق طفرةً في قلب البشر.

على ان العلم الحديث الذي اعانتا على الارتداد في سُلّم الكائنات بالحيوان
اللبون الى الحيوان المتعدد الارجل (كالحبَّار او فَنَيج البحر) ؛ وبالا انسان المتدّن
الى متوحّش العصر الحجري ، قد كشف لنا القناع الآن عن سِرِّ تكوين المبودات .
فبه عرفنا انهم وُلدوا على صورة مُبهمة عديمة الشّكل ، مُفرّقة ، في مستنقعات كلداء
السّفلى ، ثم رأيناهم فيما بعد وقد اُلبسوا حُلّة من الحُسن ، والصلاح ، وحبّ الخير ،
والقدرة على جلب النّفع ودفع الشّر ، فارتفعت نجوم اُذرع اُجيال عديدة من
البشر ، يحدوهم الايمان والثقة والعجاب والحب .

فكل الاساطير المختصة بالهة الاغريق ، وكذلك قصّة الخليقة الواردة في سفر
التكوين من توراة العبرانيين ، تجد مثلها في معتقدات كلداء آشور الدينية .
والاصل الاساطيري الذي وضعته عقول نوابغ هذا الشعب القديم ، الذكي ،
السريع التصديق ، كان وافراً وخصباً ومتنوعاً حتى وقى بكل الرغائب المختصة بالابدية
وبما وراء الطبيعة ، التي سببت الويلات لبلاد الغرب لاكثر من ثلاثين قرناً . وهانحن
نرى شعوبنا المتمدّنة تعيش روحياً الآن على المعتقدات الكلدانية والديانات التي انجبتها .

وقد ولع اهل القرون الوسطى بالتموؤة والتنجيم والسحر وهذه كلها وُلدت
وترعرعت من اقدم الأزمنة على ضفاف نهر الفرات . حتى اننا ما زلنا الى اليوم
نستعمل بغير انتباه ، بعض التعابير والالفاظ التي كانت مألوقة الاستعمال لدى محوس
بابل ، كقولنا « سَمَيّ ، الطالع » او « نجمة في صعود » او « في ساعة نحس » الخ .

وبأنما لنا في شعائر الاغريق الدينية بزموزها ، واستعاراتها ، وفنونها المتعرجة
بحياة روما واثنا الوثنية ، نرى اننا نعيد الى الحياة في صورة « المشتري » (Jupiter)
و « الزهرة » (Venus) و « عطارد » (Mercury) و « الآله الحب » (Cupidon)
ديانات آسيا القديمة مزخرفة بما أدخلته عليها عبقرية الذوق الاغريقي .

وفي واقع الامر نجد ان الجنس الآري لم يخلق ديناً ، ولكنه لما فطّر عليه من
دقّة الشعور وسُمو الخيال عرف كيف يزيّن الآلهة بجمال غلوي ، ولكنه لم يعرف
كيف يفهمها . اما الجنس الذي انتزعها من احضان الطبيعة ، وفوضى العناصر ، وأعماق

السماوات ، فانه الجنس السامي الذي تدين له الانسانية بكل رموزها الدينية من أبسطها الى اعتقادها واعمها .

ثم ان اليهود الساميين هم الذين حللوا وحققوا أحلام وأوهام كلدة القديمة المشوشة ، وخلقوا منها الارباب الذين سطع نورهم فيما بعد من فوق قمة الاولمبيا اليونانية .

وكذلك اليهود الساميون هم أول من جهر باسم « يهوه » الرهيب من قمة طورسنا ، وهم الذين جعلوا فيما بعد شفق المسيحية يضيء العالم .

وكذلك العرب الساميون هم أول من علم بالتوحيد المطلق ، فقهروا ممالك العالم باسم « الله » وفنحوها فتحاً روحياً استمر في التوسع والانتشار بعد توقف الانتصارات المادية التي لم يبق من نتائجها الا القليل .

والساميون هم الذين أخضعوا أهل الغرب الى أوهامهم . ومن يعلم مدى تأثيرهم في الشرق ، فالهند مجاورة لما بين النهرين ؛ وبوذا (معبود الهنود) يشبه كل الشبه يسوع المسيح (معبود النصارى) . ثم ان شهرة حكماء الكلدانيين التي اجتذبت الى بابل فلاسفة الاغريق الذين كانوا يعتززون بمجدهم الادبي ، لم يصعب عليها أن تجتذب كذلك الحجاج المتعششون الى معرفة الحق من ضفاف نهر (الجانج Gange) المقدس (في الهند) .

وكذلك قد تمكننا الآن من سبر غور لغة الكلدانيين وآدابهم ودينهم . وعلمنا عن يقين ان هذا الدين كان مصدر كل ديانات أهل آسيا القديمة ، من يهود ، وسورين وفينيقيين وغيرهم ، حتى ميثلوغيا (أساطير دينية) الاغريق ، كما أوضحنا منذ قليل .

ويمكننا ان نجزم الآن انه لم يكن لكلدة القديمة ، كما لكل الممالك البابلية والاشورية ، سوى دين واحد . لان عبادة « قوى الطبيعة » مضافاً اليها « تكريم الموتى » كان على شواطئ الخليج الفارسي وكل انحاء المعمورة ، أول عبادة جرى عليها الناس ، ثم حوّلها دهاه الساميين شيئاً فشيئاً الى آلهة روحانية بدت لنا في آثارهم وكتاباتهم السامرية .

وهذه الآلهة صارت فيما بعد آلهة الاغريق ، ولكنها صُقلت فوق ذروة جبل الاولمب اليوناني ، وتألفت بعد ان انفصلت عن العناصر التي نشأت منها ، الى ان تجلت شخصياتها واتضح حُسنها وإحسانها . ثم أخذت مجموعاتهم المألوفة تنتظم وتنسق ، وظهرت العلاقات التي تربطهم ببعضهم ، والدور الذي على كل منهم أن يثله على هذه الارض .

ثم ان الكتّاب والشعراء والفنانين قد أفاضوا في وصفهم والاعجاب بهذه العبقريّة الاغريقيّة البارعة التي نشرت في العالم معنى الالهة ، فأبكت الحوريات عند شواطئ الناييب والبحيرات ، وأضحكت الفؤن (الاله الحقل والراحة) بين أشجار الغابات ، وأركبت أبولو (الاله الشمس والموسيقى) على مركبة الغزالة . والله درّ الشاعر الفرنسي « ميسيه (Musset) » اذ قال ما معناه :-

« أنا أسف على زمن كانت السماء تخطر وتنفس على الأرض بين أناس تعبد الله ،
« وحيثما كانت « فينوس - عشّرت - ابنة اللجة المريرة ، تكف مدامع أمها ،
« وكانت لا تزال عذراء ، فتخصّب العالم وهي تجدل شعرها . »

ولكن الزمن الذي يأسف عليه هذا الشاعر كان عريقاً في القِدَم . لانه عندما بدت فينوس (الزهرة) ، وكانت بعد عذراء ، فوق أمواج بحر « إيجه » (Egée) الزرقاء لم يكن ذلك أول ظهورها على الارض ، بل كان عودة الى الظهور . فبكرتها الطاهرة كانت إذعاء ، وإسمها لم يكن جديداً . فما كانت « أسترت » (Astarté) أو عشّرتوت سوى إيسّار (Istar) الكلدانية ، بهجة البشر والآلهة ، التي اسكرت آسيا منذ قرون خلت بفجورها .

وكذلك إنها كيويد (Cupidon) الصغير ، الذي انصرف الى اللعب واللهو بقلوب الناس ، وعيناه مَعْصوبتان ، واسكن صورته على الاواني الاغريقية القديمة ترينا إياه مراهقاً على صدر هذه الالهة تشوان بسكرة الفسق بالمحارم . فهذا إبنها كان يغمرها قبلاً ، تحت سماء اشور ، بحُب الابن وعشق الزوج الوهّان . وكان اسمه وقتئذٍ « تَمُوز » ، وكانت أمّه « إستانار » تذوب فيه وجداً حتى هان عليها أن تفتح أبواب الجحيم لتنقذه من عذاب النار والموت ، مُردّرةً بفضب أختها « اللات » (Allat) ؛ وهي

بروسرين Proserpine الاسيوية ، ملكة المناطق السفلى ، في غزوة شهيرة ذكرنا أسطورتها فيما سبق .

ثم إن جوبيتر ، إله الصواعق ، والرب الرهيب ، الذي كان تقطيب حاجبيه يُزلزل الاولمپ (Olympe) ساد سلطانه قبلاً باسم « آشور » (Assur) أو باسم « بل » (Bel) وكان أيضاً ممسكاً بزمام الصواعق في تلك الأزمان ، وكان شعاره النسر (Aigle) ولم يخف ذلك على الاغريق . فقد وصف هيرودوتس هيكلاً هذا الاله كآراه في بابل ، وقد سَمَّاه تارة « جوبيتر » وتارة « جوبيريلوس » (Jupiter-Bélus) وهذه المشابهات كثيرة جداً حتى انه لا يمكن الا ذكر أهمها في هذه العجالة .

لأن « أنانس » (Anns) الاله السمكي الذي انبثق من أمواج الخليج الفارسي ، كما اعتقد السكديانيون ، لكي يحمل اليهم أول عناصر الحضارة ، يُطابق « نبتون » . و « أنا » (Ana) زوج « اللات » (Allat) وملك الجحيم هو « بلوتون » (Pluton) و « فول » (Vul) إله الجوّ ، هو جدّ « ساتورن » (Saturne) . و « هيا » (Hea) أو « سلمان » (Salman) المخلص ، هو المثال الذي احتذاه الاغريق لهرقلهم الجبار . والمثولوجيا (الاساطير) الاشورية كاليونانية تقول بوجود اثني عشر الالهاً عظيماً ، وهذه المجموعة الالهية تنقسم الى مجموعات ثلاثية ، احدها ينطبق تمام الانطباق على « الثالث الاخوي » المكوّن من جوبيتر - ربّ الارباب ، ونبتون - ربّ البحر ، و بلاطون رب الجحيم أبناء سترن Saturn الاله الزراعة)

وهكذا يكون الأسلوب الذي جرى عليه الاغريق ، وتبعاهم فيه في تسمية الكواكب السيارة ، والنجوم ، و بروج السماء وصورتها ، بأسماء الالهة وانصاف الالهة ، وكانات خرافية ، موروثاً عن السكديانيين . وقد رأينا أن التنجيم كان علماً له شأنه على ضفاف الفرات حتى اختلط بالدين .

فأسماء الكواكب والسيارات اورانوس ، وزحل ، والمشتري والزهرة ، والمريخ ، وعطارد ، وهرقل (الجاني) ، والثريا ، وغيرها التي نراها الآن في سماء غربنا المسيحي ، قد تردّد ذكرها في أفواه السكديانيين كما هي تماماً ، أو مع اختلاف في اللفظ لا يكاد يُذكر ، من خمسين أو ستين قرناً ، ولكنهم كانوا يرمزون بها الى

معبودات حقيقية، لأن عبادة الكواكب كانت أول ما خطر ببال البشر نحت سماء
كلدة الصافية .

هذا من حيث نصيب الأغريق من ديانات ما بين النهرين القديمة ، ذكرناه
بإيجاز على قدر الامكان . والآن نتكلم عما اقتبسته عنهم اليهودية ثم المسيحية
ان كل ما جاء في التوراة عن فوضى عناصر الكون الاولى ، « وان الأرض
كانت خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وعن
الفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد » الى آخر ما ورد في الاصحاح
الأول من سفر التكوين وما بعده . عن خلق الكون ، والتسليم بوجود الحيوانات
قبل الانسان ، وقصة الطوفان وفلك نوح ، وبرج بابل ، ^(١) وبللة الألسن ، كل
هذا نجد ما يشبهه تمام الشبه في أقدم النصوص المسماة . وكذلك الاسم « الوهيم »
(Elohim) الذي أطلقه اليهود على معبودهم ، واسم « الله » الذي يستعمله المسلمون
كلاهما « بابليان » بالمقطع الأول الذي يبدآن به وهو « إل » او « أل » ومعناه
بالكلدانية « الكائن الأسمى » .

ويمكننا القول على وجه التعميم أن دياناتنا الغربية الكبرى أشتقت من الديانات
الفلكية والطبيعية التي كانت شائعة في الشرق القديم بعد أن قرّبها الدهاء السامي
الى الافهام وصبرها عملية ، ثم زخرفها الخيال الآري وجعلها روحية .
والآن اذا رجعنا الى أصل عبادات الآشوريين والبابليين فهل نجد لها هذا
الأساس الذي تقوم عليه كل الديانات الطبيعية ، كالذي رأيناه في مصر ، وهو عبادة
الشمس ، وعبادة الأموات ؟

فمن المسلم به أن « كوكب النهار » كان من أعظم معبودات كلدة ، وكانت له
هيكل في كل مكان ، حتى أنهم كرسوا له مدينة بأسرها هي « سيبارا »
(Sippara) ، حيث كانوا يشعلون في معابدها نارا لا تنطفئ . تكريماً للشمس .

أما الأموات ، وإن لم يكن لهم في ما بين النهرين الشأن العظيم الذي كان

(١) سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر

لأموات وادى النيل ، فانه كان لهم ذات النفوذ في سلوك الاحياء . لأن الكلدانيين والاشوريين كانوا يؤمنون بخلود الروح ، وإن كانت آراؤهم من جهة هذا الخلود غير واضحة ومُحْكَمَة كما كانت في مصر . فالروح في إعتقادهم كانت تظل بعد دفن الجسد حائمة هائمة على وجه غامض ، وإذا أخذنا بوصف نزول « إستار » (Istar) الى الجحيم ، رأيناها حزينة .

كانت الارواح تعيش في ظلام الابدية وغداؤها التراب وهي تبكي على اختفاء نور النهار ، أمام صير الصالحين والطالحين فكان مشوشاً ، لان فكرة الثواب والعقاب لم تتدخل مع فكرة الدفن . فما كان اشد الآلام التي تصيب ارواح الاموات ، من البقاء بلا دفن ، هائمة كالظل الحائر المضطرب بين السماء والارض . ولكن انتقامهم كان يلحق ذوي قرباهم الذين نسوهم . وهكذا كانت تستحيل الروح الغاضبة الى شيطان مؤذ يطر المصاب على رؤوس المُصْصِرِينَ . أما الميت الذي يُعْتَق بتحنيطه ودفنه ، وتزويده بما كان يحبه في حياته ، وبالاطعمة التي تلهيه في حياة الظلام التي قُدِّرَتْ له ، فان روحه لا تعود الى الارض إلا لتُحسن الى الذين حَقَّقُوا لها الراحة الابدية .

والمقابر التي اكتشفت في كلدة السفلى كثيرة العدد ، بينما نجد ان المنقبين لم يعثروا على قبر واحد في كل آشور ، على رغم المكافأة العظيمة التي وعد بها « لا يار » لمن يعثر على واحد منها .

وربما كان سبب ذلك ان كلدة كانت في نظرهم أرضاً مقدسة يُدفن فيها كل أموات ما بين النهرين ، بما فيهم أموات الشمال . وكانت الأسرة التي تمكّنتها ظروفها المالية من بناء مقبرة لأمواتها ، تفضل أن تبنيها على ضفاف نهر الفرات الأدنى حتى يسهل نقل الموتى اليها بطريق النهر . أما الفقراء ، والصُّنَّاعُ والعامل ، فانهم كانوا يرقدون رقبتهم الاخيرة تحت طبقة رقيقة من التراب ، على مقربة من بلدتهم التي ولدوا وعاشوا فيها ، ويعمل الزمن عمله بأجسادهم ، فيحوّلها الى تراب يختلط برمال الصحراء ، فلا يبقى لهم أي أثر

وهذه الطريقة التي أتبعَت حينئذ في نقل الأموات لدقهم في الأرض المهيئة لهم

لا تزال متبعة الى الآن ، في هذا الجزء من آسيا . فالشيعة من الفرس يكابدون عناء كثيراً في نقل رفات موتاهم من مدينة كربلا لدفنها قريباً من قبر علي (عليه السلام) وكذلك كثير « المقاتلون » لهذا النقل وقد احتكروه احتكاراً .

واسكن الآشوريين والبابليين لم يتقنوا التحنيط كما اتقنه المصريون ، ومع ذلك فقد كانوا يعلقون أهمية كبرى على حفظ أجسادهم ، فيفظونها بأشرطة مدهونة بالقطران ثم يقيمون على سفوح التلال التي تحفي القبور نظاماً بديعاً يحول دون تسرب الرطوبة في داخلها .

وهذه الأختياطات كلها لم تحل دون الانحلال وان افادت في حفظ العظام التي وُجد منها شيء ، كثير في مدافن واركا (Warka) . وهذه البقايا البشرية الثاوية في الظلام من شتى القرون كانت اذا لمسها يد تنفتت وتصبح تراباً .

ولم تكن أرواح الموتى في بابل وبنوى هي التي تقوم وحدها مقام ملائكة الرحمة والعذاب ، بل الجوّ نفسه كان في اعتقادهم مأهولاً بمخلوقات خفية كثيرة التأثير في نفوس الأحياء فتنتشر بينها السعود أو النحوس على قدر ما تستحقه .

وربما كان من الصعب ان نصف أو أن نُعدّد كل أولئك الشياطين الذين ملأوا فراغ الجاهلية الأولى وتغلغلوا في تصوراتها فكانوا سبباً مستمراً لحيرة أهلها وهلعهم . فقد كانوا يصورونهم صوراً مختلفة بشعة . واسطوانات الأختام والخواتم ، والواح الآجر ، كلها لا تخلو من هذه الصور الغريبة البشعة المزعجة

وواحد من هذه الشياطين ، وهو شيطان ريج الجنوب الغربي أو ريج « الحسين » المحرق أو « السّموم » في ما بين النهرين له تمثاله في متحف « اللوفر » . وهو قائم على رجلية المنتهيتين بمثل أظافر النسر ، اما جسمه النحيل القوي فجسم حيوان ، وعلى كتفيه جناحان كبيران ، ووجهه بارز العظام دميم المنظر تعلوه جبهة فيها قرنان ، ولا يفترفه عن اصدار زئير مرعب .

نعم ان البابليين افروغوا كل ما يمكن تخيله من الوحشية في مثل هذه التماثيل ،

بحيث تجمع في اجسامها القويّة السمجة البشعة ما لا مزيد عليه من قُبْح في الحيوان والانسان .

ويظهر ان هذه التماثيل كانت كلها ترمز الى الشرّ ، حتى تدفع الناس الى اللجوء المستمر الى التعاويذ والرقى والسحر لاجتذاب رضاها او لاجتناب سخطها . وقد تفرّدت كلدة في مسائل التائم والاحجبة والتعاويذ والطلاسم والعرافة فكانت موطن السحر . وكان لسكنتها القدح الملقى في الاشتغال بأمر السيميا (السكيبيا الخرافية) والتنجيم والسحر الذي كان رائجاً حتى في القرون الوسطى .

ولم يكن الحسد بالعين ، والقدر ، والاحاطة ^(١) وغير ذلك من امور التدجيل إلا من مخلفات هذه الشعوب التي كانت تعيش على جانبي نهر الفرات

ويكفي ان قرأ تلك العبارات الجنونية الشاذة التي كان المحوس يتلوها لطرده الارواح الشريرة ، او تأمل ملياً تلك الوجوه او الاشكال التي أفرغها حدائق فنّائهم في أبشع الصور التي تشعّر لها الابدان او تقف من هولها الشعور ، حتى ندرك ما كانت عليه عقول اهل تلك القرون المظلمة او ما كان يحول فيها من تيارات الهوس الديني . وتلقاء مثل هذه المظاهر الثبائية لا تقدر أن ندرك كيف ان كلدة ، وهي مصدر كل هذه الترهات ، يمكن أن تكون في ذات الوقت مهذاً للعلم والنور ، مالم يكن غرض كتبها من تمكين هذه الخزعات من عقول عامة الشعب إماماً تأييد سلطتهم والحفاظة على هيبتهم ، أو للتوسّل بها ، أو التسلّو راءها ، الى تحقيق أغراض سامية .

وفي الواقع نجد ان كنة بابل قد اكتسبوا في الحكمة والعلم شهرة ذاعت في كل أنحاء العالم القديم ، حتى ان آشور التي قهرتها بقوة النار والحديد ظلت خاضعة لها أدبياً . وكذلك كان « آشور بانينال » المعتز بفتوحاته يرسل رعاياه الى دور العلم الشهيرة في « أور » (Ura) و « سيبّارا » (Sippara) و بابل .

(١) Envoûtement وهو انهم كانوا يصنعون تماثلاً بسيطاً يمثلون به من يقصدون اينداهم ثم يوقدون غني التثايل ما يشتهون وقوعه على عدوّهم من الادي ، اعتقاداً منهم ان ذلك يصل الى جسم ذلك العدو . وهذا النوع من السحر ما زال معروفاً في بلاد الشرق وفي بعض جهات اخري من العالم .

ومع ان ديانتا الملكتين امتزجتا حتى صارتا ديانة واحدة في القرون المتأخرة ، فقد بقي رغم هذه الوحدة فرق طفيف تتميز به عبادة نينوى من عبادة بابل . فعبادة نينوى كانت أشخَن وأقسى من عبادة بابل التي كانت تمتاز بنعومتها وجورها . ففي آشور كانوا يريقون الدماء على المذابح ، ويقدمون الذبائح التي تتناول الضحايا البشرية بطريقة بربرية ، أما في بابل فقد كانوا يحاولون كشف القناع عن أسرار الطبيعة والآلهة ، ويستسلمون الى نظريات جريئة ، والتضحية الوحيدة التي كانوا يرجون انها تُرضي الآلهة هي تضحية العفة

وفي الفصل المتعلق بالاخلاق والعادات ، أشرنا الى الصفحة التي وصف فيها هيرودوتس الاساليب الشهوانية التي كانت تُمارس في معبد الالهة « ميليتا » (Mylitta) . فكل امرأة كان يجب عليها ، على الأقل مرة في حياتها ، ان تضحي بجبالها تضحية تامة إكراماً للالهة ميليتا . وفي ماعدا هذا الاكرام العام ، فإن كل هيكل كانت له بغاياها المقدسة المختصات بالمعبود وحده ، أو بالحري كما يجب أن يفهم ، للسكنة بصفتهم نواب عنه . . . نعم انه كان يوجد آلهة بابلية مثل « كرشنا » (Krishna) الهندي الذي كان باختياره يتنازل عن هذا الحق . وفي وصف ذلك يقول هيرودوتس : -

« ان في آخر بُرج من التُصب الأثرى المكرس ، لجوبيتر يُلُص ، (Jupiter Bélus) يُوجد معبد كبير فيه سرير عليه غطاء جميل ، وبقربه مائدة من الذهب . وليس هناك أي تمثال . وما كان لأحد أن يقضى الليل فيه الا اذا كان امرأة من نساء البلاد ، وقع عليها اختيار الآلهة : على مايقوله الكهنة الكلدانيون . ويضيفون الى ذلك ان الاله يهبط بنفسه ليرتاح على هذا السرير . ولكن يظهر لي ان ذلك بعيد عن التصديق . ومثل هذا كان يحصل في طيبة (Thèbes) مصر أيضاً ، على رواية المصريين ، حيث كانت تنام امرأة كل ليلة في معبد « جوبيتر الطيب » ، ولكنهم يؤكدون ان لا هذه ولا تلك كانت تُضاجع أحداً . وكذلك كان الحال في « باتار » (Patare) في ليسيا (Lycie) لما كان الاله بشرّف البلدة بحضوره ، فانهم كانوا يحجزون « الكاهنة العظمى » في المعبد طول الليل للقيام بما يلزمه من الخدمات ... »

وفي الديانة الكلدانية الآشورية كان للعنصر النُويّ القُدح المُلّي . حتى اتنا
لا نجد في سواها من الديانات ما كان لها من المعبودات وما كان لمعبوداتها من القوة .
ولم يكن الآلاه لينفرد بنفسه ، بل كان لكل منهم زوجة تُعتبر « نصفه » تماماً بأوسع
معاني الكلمة ، تقاسمه مكائته ، وصفاته ، وهياكله ، ومذابجه ، ومجده ، وسلطانه .

وكان الامتزاج على أتمه في اتحادها بدرجة تحمل على الظن انه لم يكن زواجاً بالمعنى
المألوف لنا من هذه اللفظة ، بل كان اتحاداً تاماً في شخص واحد كاتحاد الخنثى (١) .
ويظهر انه عند الدعاء اليهما لم يُعتبر ان لكل منهما شخصية مستقلة ، بل كانت صفة
الالهية المجردة من الانوثة أو الذكورة هي التي تتمثل للعابدين كما يتضح من ترجمة
الترجمة التالية : -

« ان اثني النجوم ، الزهرة (Venus) ، تكون « نجمة المساء ، عند غروب
الشمس ، والزهرة الذّكر تكون ، كوكب الصّباح ، عند شروق الشمس . ونجمة
الزهرة عند شروق الشمس يُسمى حائزها (زوجها) « ساماس » ، وكذلك يسمى
« فرعها » (ابنها) . ونجمة الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمها « الآلاهة أجادي ،
وعند غروب الشمس ، الآلاه اوروك ،

« وكوكب الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمه بين النجوم « إستار ، وعند
الغروب يكون اسمه بين الآلهة بيليت (Belit) ،

وعلى ذكر الخلط بين الجنسين يجب ان نذكر ايضاً الخلط بين الابن والزوج ، كما
يتضح من السطر الثالث من الترجمة السابقة . وهذا الخلط في الانساب والاسماء
والصفات قد زاد في غموض الديانة الآشورية غموضاً وإيهاماً وتقيداً . فهذه الديانة
الاساطيرية (مثولياً) ، التي هذبها العقلية الاغريقية المنطقية لما اقتبسها نفسها ،
ظلت دائماً غامضة على ضفاف نهر الفرات ونهر دجلة ، واكل وضوحاً من الديانة
المصرية القديمة التي تشابهها من بعض الوجوه ، والتي لم تكن بلا شك الا فرع من
أرومتها ، استقل بنفسه من قديم الازمنة وترعرع منزلاً عن أصله .

(١) جمع كلمة خنثى بمعنى من له عضو الرجال والنساء وصفاتها مآ .

وهناك نقطة أخيرة يجب ان نقف عندها لانها كثيرة الشبه بأساس العقائد المصرية القديمة ، ألا وهي التَّنَوُّبَةُ ^(١) الطبيعية ، والصراع الازلى القائم بين الخير والشر ، وبين النور والظلام ، التى تسود فى المعتقدات الكلدانية الاشورية . وهكذا نرى ان تلك الارواح التى تعمّر الجوّ كانت فى حرب مستمر مع بعضها البعض . ولذلك كانت أفضل الطرق عندهم لايقاع الأذى بالاعداء هى ان يحالف الانسان شيطاناً اقوى من شيطان عدوّه ليقهره ويضطرّه الى الهرب . وكثيراً ما نرى صورة ذلك منقوشة على آثارهم .

وهذا الاعتقاد الاساسي هو الذى ساد وترعرع فى أحضان الديانات التى أحيّت فى ذات البلاد معتقدات كلدية فى صور مختلفة .
فالقرس بعقيدتهم « الاثينية » فى عبادتهم الشمس والنار ، يظهرون أنهم ورثة هذه العقيدة العتيقة التى عرفوا كيف يغدّونها على مدى القرون الطويلة والاجيال العديدة المتعطشة الى ادراك الحقيقة الازلية

فعبادة النار التى كانت تحتل بعبادة الشمس كان لها فى الواقع اعظم شأن واحترام على شواطئ دجلة والفرات ، كما يستفاد من هذا النشيد : -

« أيها اللهب ^(٢) ، السيد السامى ، المرتفع فى سماء البلدان

« يا د هيروس (Héros) ، يا بن الاوقيانوس .

« أيها اللهب ، بشعلتك الزاهية خلقت النور فى مئوى الظلام .

« وقسمت حظوظ كل من تسمّى باسم

« أنت الذى تخرج النحاس بالقصدير .

« أنت الذى تلمّص الذهب والفضة .

« أنت الذى فى ظلام الليل تُلقى الرعب فى قلب الشرير .

(١) ترجمة Dualisme de la nature

(٢) استعملنا لفظة « اللهب » بدلا من « النار » المقابلة للاصل الافرنسي لان النار بهذه اللغة مذكرة وبالعربية مؤنثة فاستعملنا استعمال « اللهب » لندكيه . ومعنى اللهب فى اللغة « لسان النار » .
(الناشر)

، ان الانسان ، ابن الهه ، تُشرق أعماله بالطهارة
 ، ويلسع كالسما .
 ، ويكون نقيًا طاهرًا كالارض
 ، ويتألق في كبد السماء . .

ولم تكن « النار » وحدها هي معبودة اهل ما بين النهرين ، بل انهم كانوا
 يعبدون كل قوى الطبيعة ، فالأوقيانوس ، والريح ، والأُنهر ، وعلى الاخص الكواكب ،
 كانت كلها مأهولة بمعبودات الكلدانيين . وهناك قبل ان ترفرف الحضارة على اليونان
 القديمة « كانت السماء تمشي وتنفس على الارض بين جمهور من الآلهة . »
 وكان سكان ما بين النهرين اكثر الناس تعلقاً بالدين . ولم يكن شمسهم
 هذا صادراً عن إيمان أعْمى ، بل كان شعوراً عميقاً يدفع اليه التأثير بالبوُس والشفاء
 والخضوع لفكرة الواجبات التي يُحتملها تقديس الآلهة . ويمكن ادراك هذا الشعور من
 الترتيبة التالية التي تضارع اجمل مزامير (داود) اليهود :-

، اللهم سَكَّنْ غضب قلبك النائر ،
 ، وليسعني حلم الرب الذي أجمله
 ، يا مَرزُبَان (١) الغضب ، اني أرتوى بيماء الاحزان
 ، وأنفذى بعصيان ربِّي دون ان أدري
 ، وأسير مخالفاً لإلهي دون أن أعلم .
 ، اللهم ان ذنوبي عظيمة ، وخطايي عديدة وجسيمة
 ، أيتها المعبودة التي تعلم الغيب ، ما أكثر خطايي وآثامي
 ، اني أرتكب الاثم ولست أدري
 ، واصنع الشر ولا أعلم
 ، لقد حمي غيظ الله مني ، واستشاط قلبه غضباً عليَّ
 ، إن الله في سورة غضبه أرهقي
 ، والالاهة في حنقها عليَّ سقتني كأس المر

(١) ترجمة Mage وهو الرئيس عند الفُرس ، يبعث تعزف ، لان المقابل الحقيقي

هي لفظة « مجوسي »

• وهكذا آخرُ ساجداً وما من أحدٍ يمدّ يده نحوي
• وأجهرُ بالدعاء ولا من يسمع
• وقد أنهكنى الشقاء وليس من يخلّصني
• وهكذا أقترّب من ربّي الرحيم وأبث له شكراي .
• لقد ارتكبت ذنوباً ، فلتُهبّ عليها الريح لتسحّبها .
• تجاديني^(١) على الدين كثيرة العدد ، فزقها كما يُمزّق البَشَرُ .
• يا إلهي خطاياي لا تُحصى (سبعة في سبعة)^(٢) ، فاغفرها لي
• اغفر آثامي ، وسدّد خطوات من يتقدم اليك خاشعاً
• فلتُبرِض عليّ قلبك ، الذي كقلب الام الرّؤوم . .

وهكذا فاض هذا الدين الكلداني العميق من خلال العصور كالنهر العظيم
فأروى ظمأ قلوب الملايين من بنى البشر ، وظلّ ينبوعاً لأسمى المعتقدات وأحسنها ،
ولتعزيزهم وتشجيعهم على التقدم نحو الهدف الاسمي بلا مأل .
نعم ان ما تطمح اليه نفوسنا الآن ، وما عرض لها من المطالب الجديدة ، يجعلها
في حاجة الى غذاء جديد اقوى من هذا القديم تنوّف فيه العناصر الضرورية للحياة
الجديدة . ولكننا يجب ان لا ننسى فضل اولئك المجوس القدماء ، الذين ظلّوا
يسألون سماءهم الصافية حتى استنزّلوا منها الى أرضنا تلك التخيّلات السامية التي
سحرت قلوبنا ، وان كانت لم تتمكن بعد من خلب عقولنا .



(١) جُمع كلمة « تجاديني » .

(٢) وهذا يذكرنا بما يسمونه عند بعض المسيحيين (Les Sept Péchés Capitaux)

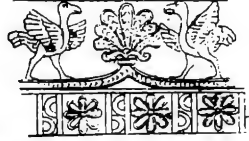
السبع خطايا الكبّرى أو الرئيسية

الباب السابع

فن الانشاء والعمارة

١ - المميزات العامة لفن الإنشاء والعمارة في عهد الكلدانيين والآشوريين

إن البابليين والآشوريين كانوا من أعظم المشيدين . فأن جمال مدنهم وخامة أبنيتهم اشتهرت بين شعوب العهد القديم ، حتى ان الأغريق ، وهم الخيرون في معرض هذا الفن كانوا يذكرون بالاعجاب ما لهم من الآثار ، ويقولون أن حداقتهم المعلقة ، وأسوار بابل هي من بين عجائب الدنيا السبع .



ومرجع الفضل الى ستيزياس ، وهيرودوتس ، ودودورس ، وسترابون في بقاء شهرة ارض الجزيرة ، من حيث العمارة والانشاء ، حية مدى كل هذه السنين بناء على ما رووه عنها .

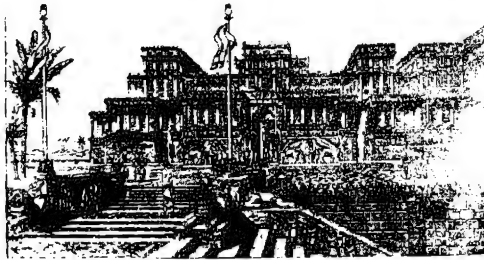
وما كان احد في اوربا من خمسين سنة يصدق انه سيأتي يوم تؤيد فيه عيوننا ، بطريق المشاهدة ، تلك الروايات التي كنا نقرأها ولا نصدقها ، أو أن مدن الشرق القديم هذه ستفنى عن عظمتها ومجدها رمال الصحراء التي ظلت مدفونة فيها اكثر من ألتى سنة

فقد جاء اليوم الذى نُشر فيه بوتّا (Botta) ولأيار (Layard) وغيرهما مدينة نينوى التي لم يمتد الى موقعها كزينوفون (Xenophon) قبل المسيح بنحوار بعاية سنة . فكشف لنا الباحثون عن قصور مَرجون وسنحاريب واشور بانيبال . واخترقوا قاعاتها ، ومن أوضاعها أَمَاطوا اللثام عن حياة ملوك آشور الخاصة ، وعثروا على أخاديد المركبات عند أبواب المدينة ، وعلى حلقات الحديد التي كانوا يربطون فيها خيولهم في

الاسطبلات ، وعلى خُدُور الحريم التي كانت تُعصب فيه مضاجعهم . وأمكنهم ان يرسموا تخطيط الغرف والمخادع والايوانات والافنية ، ويحددوا مساحاتها ومسطحاتها . ثم بعد ان استعانوا بما عثروا عليه من الصُور البارزة ، سهل عليهم ان يستعيدوا في اذهانهم أشكال الواجهات المتهدمة والأروقة المنهارة .



(صوراً ووجهه قصر مرجون ، في دور زابادكا تنخيلة)



(واجهة قصر سنحاريب في نينوى كما تنصوّره)

ومع ان ما اكتشفوه قد ألقى نوراً أضاء تاريخ المدينيات البشرية ، ولكن لا يصح ان نقد رُخائب نينوى وبابل كشيلائها في طيبة او تدمُر (Palmyra) . ومع ذلك نرى ان السائح يقف امام تلك الاطلال ذاهلاً مشدّهاً لما يشاهده فيها من دلائل العظمة وآيات الفن ، فيذكر كُبر إسحٰى « نينوس » (Ninus) و « سميراميس » (Semiramis) وما كان لهما من المجده والعظمة على ضفاف نهريّ دجلة او الفرات ، ولاكنه مع كل ذلك لا يشاهد في ما بين النهرين ما يشاهده في وادى النيل من الاعمدة الشائخة والتمائيل التي لا تزال رغم تشويها تلقى في النفس روعة ومهابة . وكذلك

الابراج ذات القواعد الوطيدة ، وقماثيل ابي الهول التي لم تستطع القرون ان تعبت بوجوها الحجرية ، وكل هذه تذكّر الانسان بضوئته وسرعة زواله

وليست هناك إلا طريقة واحدة لاكتشاف تلك المدائن التي كانت فيما مضى سيدة مدن آسيا ، ألا وهي التنقيب في الارض . لانك لا تجد من آثار بابل وآشور شيئاً قائماً على سطحها ، بل ترى تلالاً هي عبارة عن رُكام من الآجر أنفَت الرياح عليها رمال الصحراء فاصبحت بمرور الزمن كالتلال الطبيعية ، وشيد الفلاح العربي قريته فوق مرتفعاتها لتحمية من وخامة أنجرة المستنقعات التي تكثرت في منخفضات السهول ، والبعض الفئاك الذي يتولّد في هذه المستنقعات .

والآن لا نرى من كل كلة التي كانت تنبه دلالة بفخامة قصورها وهيبة معابدها ومناعة أسوارها وحصونها الا ركاماً من أنقاض تراكت عليها الرمال والأتربة

ولكن معاول بوتّا (Botta) ولا يار (Layard) أمكنها ان تنبش من تلك التلال ما كان مدفوناً في جوفها من الكنوز . الا ان ماتمّ في نينوى ، لم يكن قد بُدئ بثلّه في بابل ، لانهم قدّروا انه يلزم لهذا الكشف ما لا يقلّ عن عشرين الف عامل ، يشغلون باستمرار نحو عشر سنوات ليرفعوا ملايين الامتار المكعبة من الرمال عن اطلال « بير نمرود » (Birs-Nimroud) فقط .

واين المال في بلادنا الغريبة الآن للانفاق منه على هذا العمل العظيم بينما ترهقها الضرائب الفادحة لاضطرارها الى البذل في سبيل ما يسمّونه « السلام المسلح » ؟ وهكذا نظن ان بابل سبق دائماً أبداً ركاماً كما تنبأ لها أشعيا النبي بقوله : -
« وتصير بابل كسدوم وعمورة ، لا تعمر الى الأبد ،

ومن السهل ان ندرك سرّ انهيار أبنية الاشوريين والبابليين السكلي ، وذلك يرجع الى طبيعة المواد التي استعملت في تشييدها . فلم يكن الحجر داخل في هذه المواد لانهم اقتصرُوا على الآجر (القرميد) واللبن (الطوب المجفّف بالهواء واشعّة الشمس) .

ولكن اذا كان الكلدانيون قد اضطروا الى اتباع هذه الطريقة لانه لم يكن لديهم في سهولهم الواسعة سوى الطين ، فلماذا اتّبع الاشوريون نفس الطريقة ومقالع

الجرانيت والجص كانت وافرة في الجبال التي تكتنف من الشمال حوضي الدجلة والفرات ؟ والجواب على ذلك هو ان التقليد يُحتمل ان يكون الدافع لهم على اقتفاء اُرسائهم في فن العمارة كما في غيرها، او اتباع النُسق الذي كان شائعاً في كل البلاد وقد كانت بابل دائماً النموذج الذي تحذى مثاله نينوى . ولم يجرؤ الاشوريون ان يحدوا عن قواعد الفن التي رُوِعت في تشييد مباني عظيمة مثل معبد بعل (Bel) والحدائق المعقّاة .

وكان لاستعمال الطُوب دون غيره سبب آخر ، على ما نظن ، هو توحّي السرعة في التّشييد ، لان كل ملك كان يهتم ان يكون له قصر خاص اُجل وأحسن من قصور الذين سبقوه . حتى ان القائمين بأعمال التنقيب كانوا يجدون تحت كل تلّ في آشور رفعوا عنه الرمال قصر ملك جديد . فوجدوا قصر سرجون في خورزاباد (Khorsabad) وقصر آشور بانيبال في نينوى .

وبينا كان فراغة مصر يشروعون في بناء مقابرهم حين يرتقون العرش ، ثم يأخذون في تكبيرها وتقويتها سنة بعد سنة لجعلها لائحة بثوام الابدية ، كان ملوك الاشوريين يشيدون على وجه السرعة قصورهم لتكون شاهدة على ما كانوا ينعمون به من المجد في حياتهم القصيرة على الارض . لذلك لم يكن لديهم متسعاً من الوقت لكي يهتموا بحفر المغاور في بطون الجبال ، او حُجَاب الاحجار الضخمة بعد قطعها ونحتها في أقاصى البلاد كما كان يفعل المصريون ، بل كانوا يملأون السهول بآلاف العبيد وأسرى الحرب يسخرونهم في ضرب الطوب الذي كانوا يصنعونه على عجل من معجون الرمل والطين ليشيدوا به أبنيتهم الفخمة المنظر ، دون ان يحسبوا حساباً لخلودها . ولولا ان هذه الأبنية قد طمرتها رمال الصحراء فحفظتها من الدُّثور ، لكانت أصبحت أثراً بعد عين منذ أقدم الازمان . ولكن هذا هو مصيرها العاجل الآن بعد ان رُفِع عنها دِيارها وتعرّضت لتقلبات الطبيعة .

أما لوحات الرسوم البارزة التي نقلناها الى متاحفنا فانها محفوظة على قدر الامكان في الخبائي . هناك ؛ والرسوم قد انقذها رسّامونا من الزوال ، ووصف ما شاهده رؤادنا مضافاً الى ما دونه . وثرخو الاغريق سيخلّد الكثير من تاريخ هذه البلاد . ولكن

مدُن ما بين النهرين لا يمكن ان تظهر من تحت التراب الا لتعود اليه تراباً . فالهواء الجوي بجفافه ورطوبته ، والرياح والامطار ، والشمس وحرارتها ، كل هذه العوامل تتمعمل عملها الطبيعي في هذه الجدران المشيدة من الطين والصلصال التي حالما ترى النور ستعود الى غَمَةِ القبور ، لتستبدل حُلُوكَة العدم بظلمة النسيان .

أما بقايا هذه المدن التي اصبحت اكواماً وتلالاً ، فقد أخذ الاهالى الحاليون يستعينون بها على بناء مساكنهم وهم لا يخشون نقادها ، حتى ان فلاحي الحِلَّة (Hillah) او بيرمرد (Birs-Nimroud) اخذوا يبنون أكوخهم الحفيرة من طوب والواح صلاصالية عليها ختم الملك نبوخذ نصر . وهكذا نرى ان الابنية القديمة القليلة الالهية قد عثت آثارها بطبيعة الحال بانهار مدُن آسيا ، ولولا ما انقطفاه ممّا اقتضاه من الرسوم البارزة والنقوش والكتابات التي حافظنا عليها لما كان في وسعنا ان نصل الى ما وصلنا اليه من المعلومات ، التي لم تزل ناقصة ، عن حياة اهالى اشور وبابل العادية . ويظهر ان مساكنهم كانت كثيرة الشبه بالمساكن التي نراها الآن في كل أنحاء الشرق ؛ ظاهرها في غاية البساطة ، نوافذها قليلة وصغيرة كي تحفظ ، على قدر الامكان ، برودة جو المنزل الداخلي من التأثير بالحرارة الخارجية المحرقة ، واسطحتها ^(١) كانت منبسطة ، وبعضها مقببة على شكل نصف كرة أو شبه بيضبة .

وقد أكد هيرودوتس ان منازل خاصة الشعب كانت تؤلف من ثلاث أو أربع طبقات . ولا يسعنا الا تصديقه في هذا القول ارتكاناً على ثقتنا بقوة ملاحظته لكل ما وقعت عليه عيناه ؛ لان تعدد طبقات المساكن لم يبق على صحته أي دليل باق في أطلال الصروح الهامة سوى في طلل الصرح المسمي « زجورات » (Zigurat) الذي صنّفه فيما بعد ، والذي يمكن أن يكون الوحيد في أطلال بابل .

أما الذي أمكن استعادته الى الخيلة ، من آثار اشور وكلدّة بأدق ما فيه من التفاصيل ، فهو المعابد والقصور والاسوار ، وقد يوجد غيرها كالحدايق المعلقة ^(٢) ،

(١) استعملنا هذه الصيغة لجمع سَطَح البيت بدلا من لفظة «سطوح» الواردة في المراجع ، لان هذه اللفظة (سطوح) استعملت الآن في مصر للمعرد

(٢) بناها الملك بختنصر لمشوقته ، وكانت حيطانها بسمك سبعة اذراع من الطوب الاخضر ، ثم انني عثر متراً من الطين حشووا وكسبت بالاجز بسمك ٨٠ ص ٧ متراً . وكانت القبة على ارتفاع ١١١ ر ٣٦ متراً ، وقد حُط في وسطها طريق يعرض ٢٥ متراً لمرور المشاة الركبان والمركبات .

والقنطرة التي أقامتها سميراميس فوق نهر الفرات. وكل هذه لم تترك أثراً حقيقياً بين ماتم اكتشافه حتى الآن . ولا يبعد أنها كانت موجودة ارتسكاناً على ما ذكره كتاب الاغريق ، وما ورد في بعض المخطوطات التي أيدتها الاكتشافات الحديثة ولو على وجه التقريب .

نعم ان بعض ما ذكروه يدعو الى التريث ، ولكن الذي لا يمكن أن يسلم به بعض العلماء هو تعدد طبقات المساكن ، على ما رواه هيرودوتس وأشرنا اليه قبل الآن . وكذلك التَّفَقُّ الذي روى ديودورس الصَّقِّي ان الملكة سميراميس حفرته تحت مجرى نهر الفرات بين قصرها على ضفتيه .

وهاك ما قاله هذا المؤرخ عن الحقائق المعلقة التي سبق ذكرها مراراً : -

- وكان يوجد في الحصن حديقة معلقة ، ليست من صنع سميراميس بل من صنع ملك قبلها ، أقامها ليَسْرِ بها حظيَّته ، أو بالأحرى ليعوِّض عليها ما تركته في وطنها الأصلي ، فارس ، وندمت على تركه من الحقائق الغشاء ، والمروج الخضراء .
- وهذه الحديقة مربعة الشكل ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها أربعة ، بلشترات (plèthres) أي نحو ١٢٠ متراً . وكانوا يصلون اليها بدرجات . وكانت عبارة عن مسطحات تتدرج في الارتفاع حتى يتكوّن من مجموعها ما يُشبه المدرج (amphithéâtre) . أما هذه السطوح ، أو بالأحرى المصاطب ، فكانت مرفوعة على أعمدة في صفوف مُتباعدة ، تتدرج في الارتفاع وتحمل ثِقْل ما عليها من المزروعات . وكان أطول هذه العمُد ، ويبلغ ارتفاعه خمسين ذراع ، أي نحو خمسة وعشرون متراً ، يحمل أعلى جزء من الحديقة الذي كان في مستوى أعمدة الحصن . وكانت الجدران ، المبنية أمْتِنَ بناء ، يبلغ سمكها اثنين وعشرين قدماً ، والمصاطب كانت مبنية من كُتْل حجريّة طول كل منها ست عشرة قدم وعرضها أربع أقدام . وهذه الكُتْل كانت مغطاة بطبقة من الغاب (أو القصب المعروف في مصر بالْحَجَنَة) المشبّع بمقدار كبير من الرّفْت . وعلى هذه الطبقة مِمّا كان من الآجر المحروق مِثْبَتان بملاط (جص) . وفوق ذلك غطاء من صفائح الرصاص وطين الابلز لينع رشح وتسرّب المياه الى الاساسات . وعلى هذا الغطاء طبقة سميكة من الطين تكفي لكي يُغرس فيها اكبر الأشجار .

• وهذه الحديقة الاصطناعية كانت ملائ بالاشجار والمغروسات من كل نوع يُسهر
• الأنظار ويبهج القلوب . وترتفع الاعمدة تدريجاً ، ومن خلالها كان يدخل النور ،
• وكذلك يمرّون منها الى المقاصير الملوكية الكثيرة العدد والبدعة الزخارف .

• وكان واحد من تلك العمد مجوّفاً من القاعدة الى القمة لرفع المياه من
• النهر بالآلات خاصّة (هيدروليكية) بغير أن يراها أو يشعر بها أحد . .

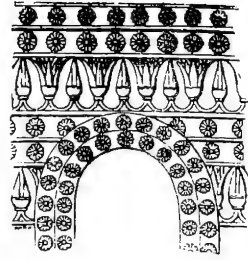
وقد أفضنا في ذكر كلام ديودورس لأننا ، بالرغم عمّا ظهر من الاكتشافات
الحديثة التي عثر عليها المنقبون في أرض الجزيرة ، مازلنا نرى أنفسنا مضطرون الى
الاعتماد على أقوال هذا المؤرخ العظيم في ما يختص بأنهم أثر بابلي يتردد ذكره في
أرض الجزيرة . وما زال أهالي تلك البلاد يبحثون عن أنقاضه في تلٍّ معروف باسم
« القصر » حيث يجدون طوبه المبصوم بخاتم الملك نبوخذ نصر . وعلى ذروة هذا
التلّ تنمو شجرة عَمل (tamaris) صغيرة في التراب الذي في أحد الشقوق هناك
يربها الأدلاء للسائحين ، بكل خُشوع واحترام باعتبار انها آخر نبتة من نباتات
تلك الحدائق المعلقة التي تغنى بوصفها ديودورس .

وهنا يحسن بنا أن ننبّه الى الفائدة من ذكر أمثال هذه الاساطير التي تسلك
كل سبيل يقف أمامه العلم صامتاً ، وذلك لما لها من الاهمية في تاريخ العقل البشري .

غير انه توجد مسألة في حاجة الى النظر ، تختص بكلمة « عمود » التي
وردت مراراً في شرح ذلك المؤرخ الاغريقي . فرغماً عن كلام ديودورس الذي
يحملنا على الاعتقاد بأن الاشوريين توصّلوا الى استخدام « الاعمدة » لحمل
ما يوضع فوقها ، فاننا الآن نشك في هذا الامر ، ولا يمكننا أن نؤكد انهم ، كانوا
يجعلون قاعدة الاعمدة بسبب ظهورها في كثير من نقوشهم البارزة ، ولكننا نرجّح
انهم كانوا يستعملونها للزينة ، لالحل السقوف والسقائف ، لانها كانت مُدْمِجَة
في المحيطان لتحمل سقفًا ولا ثقلاً .

والذي يمكننا أن نؤكد هو انهم كانوا أول من بنى العمود . وكانت لهم أساليب
شتى في إقامتها بحيث تكون شديدة التماسك والصلابة .

و يغلب على الظن ان تلك الحدائق المعلقة كانت ترتكز على قاعدتين أو ثلاث قواعد من هذه العقود . وكانت الجدران التي تفصل بينها تشغل الفراغ الذي بين اكتاف العقود فتأوّل للناظر كأنها أعمدة . ولعل ديودورس انخدع بما شاهده ، أو سمعه ، ولم يتحققه ، لان تلك الحدائق المعلقة الواحية البناء ، التي دعت



الى إنشائها أعوامه امرأة فاجرة لم تكن قائمة عندما زار هذا المؤرخ مدينة بابل . أما ما رواه عن قنطرة الفرات ، فانه بلا شك أقرب الى الحقيقة مما أظن في روايته عن تلك الحدائق المعلقة . وهاك ما رواه عن القنطرة :-

• ترتكز هذه القنطرة على أعمدة (بَغال) غائصة الى عمق بعيد ، ويبعد بعضها عن بعض نحو اثني عشرة قدماً . وكانت حجارتها مرتبطة بعضها ببعض بواسطة كلاليب (كانات) غفارية من الحديد وموثقة بالرصاص المسيح المصبوب بينها . وناحية الأعمدة (البغال) المعرضة لتلقى صدم تيار الماء كانت مبنية على شكل زاوية معكوسة لكي تقاوم التيار وتكسره ، فيمتنع الخطر عن بناء القنطرة . وكانت القنطرة مكسوة بألواح من خشب الأرز والسرور ، مثبتة على كُتَل غليظة من جزوع النخل .

• وكان عرضها ثلاثون قدماً ، ولم تكن أقل من غيرها من منشآت سميراميس حُسناً وجمالاً .

• وعلى جانبي النهر أنشأت أرصفة فسحة فخمة ، لا تقل عرضاً عن السور ، و يبلغ طولها (امتدادها) نحو مائة وستين ستاداً (ثلاثون كيلو متراً) ،

ومع ان اسم « سميراميس » لم يُعثر عليه في اي مكان ، حتى ولا في بابل او نينوى ، رغم ما كشفت له لنا قوالب الطوب من اسماء اقدم الملوك هناك ، فان ما ذكر في السطور السابقة يمكن الجزم باعتباره قريباً من الحقيقة .

وقد كان نهر الفرات مشغلة ملوك بابل الدائمة . لان فيضانه المتكرر كان يدعو الى التنظيم والعناية المستمرة ، كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل . فانه كان يحرق في

فيضانه كيَّات من الرمل تسدّ مجراه فتحوّل مسيله في بعض الاحيان . لذلك كان في حاجة دائمة الى التطهير ^(١) وإقامة الجسور على ضفافه ، وتحويل مياهه عند ارتفاع الفيضانات ، بواسطة قنوات الى حيضان واسعة حتى لا يهدد المدينة بخطر الفرق . وكل هذه الاعمال العظيمة كان يقوم بها قدماء اهل بابل . ولا تزال على الضفة اليسرى آثار هذه الجسور العظيمة التي ذكرها ديودورس . وهنا نعيد ما سبق لنا ذكره وهو ان فنّ العمارة السكلمانية الاشورية ظهر في أنهى وأروع اشكاله في نوعين من الابنية الأثرية هما المعابد والقصور التي كانت زينة بابل . فالابنية الدينية كانت أكثر فخامة وروعة في بابل مما كانت في نينوى التي كانت تعنى عناية خاصة بقصور الملوك ، تلها عناية ثانوية ببيوت العبادة ، كأن الالهة غير المنظور ترك هناك الفخفة والزهو للاله المنظور الذى هو الملك ممثله على الارض .

وربما كان ذلك هو الفرق الوحيد بين كلدة وأشور من حيث فنّ هندسة المباني . أمّا شكل الابنية والمواد المستعملة فواحد في كليهما ، كذلك الالهام الروحي والتقاليد فانهما متشابهان عند كليهما . ولذا فانا سنكلم عليهما (المعابد والقصور) من حيث غايتهما الدينية والمدنية ، لا من حيث الاقليم الذى شيدت فيه .

والآن ، وقد رفع مُنقِبو علماء العاديات في بحر الاربعين سنة الاخيرة الأثرية عن الكثير من الابنية الأثرية في أرض الجزيرة ، فلسنا في حاجة الى الرجوع الى كلام الاقدمين ، بل سيكون كلامنا مبنيًا على رؤية العين ، لاعلى سماع الاذن أو الظن أو الحدس والتخمين .

٢ - الهياكل

روعي في هياكل السكلمانيين والاشوريين تصميم (رسم) واحد ، بناء على فكرة ثابتة لم تتغير . وقد رأينا مثل هذه الوحدة الثابتة في هياكل قدماء المصريين ، حتى انه كان يسهل علينا أن نستعيد بناء النماذج النظري منها . ولكن هذه الوحدة التي لم يصعب تحقيقها في أرض مصر حيث تيسر إقامة البوابات (البوائك) المتعاقبة ،

(١) استعملنا هذه الكلمة المأخوذة في مصر بدلاً من « كسري او نكش » المعجميتين

والعرف المرفوعة على الاعمدة ، والمسلات المنصوبة امام الابواب ، ووضع العدد العظيم من تماثيل أبي الهول على جوانب الطرُق المؤدية الى الهياكل ، وكذلك تغطية جدران الهياكل بأخف مشاهد الحياة ، لم نثر على ما يضاهاها في ما بين النهرين . لان نموذج المعابد هناك لا يتجاوز مايسمونه « زجورات » ^(١) (Zigurat) وهو مايشبه على وجه التقريب الاهرام المصرية المدرجة التي كانت مخصصة لدفن الفراغة . وأبنية كهذه الجبال الاصطناعية ، في سهول بابل المنبسطة ، يكون لها في النفس أثر رهيب ، خصوصاً لانهم أسرفوا في تزئینها بمختلف الالوان عند تجصيصها (تبييضها) وتقسيمها ، و بالتماثيل الضخمة التي نصبوها عليها ، ومع ذلك نجد ان مخيلتنا لا تتأثر امامها كما تتأثر عندما نشاهد الرذهة ذات السقف المرفوع على أضخم العمدة في الكرنك ^(٢) .

« فالزجورات » لم يكن في الحقيقة سوى هرم ذي طبقات ، اعتادوا أن يجعلوا عددها سبع ، ترتفع غالباً الى علو شاهق . وقد غالى مؤرخو الاغريق وشطوا كثيراً في وصف تلك الزجورات ، لان المكتشفات الحديثة دللتنا على ان بعضها لم يتجاوز ثلاث أو أربع طبقات ، ومنها قصر « خورسباد » الذي أطلقوا عليه اسم « المرصد » نظراً للغرض العلمي الملازم للغرض الديني الذي أنشأوه من أجله .

وبما ان ارتفاع أعلى الادوار لا يزيد على عشرة أمتار ، فلو فرضنا ان كل « زجورات » يتألف من سبعة أدوار ، مضافاً اليها سُمك الاساسات والقاعدة الارضية مع ارتفاع المعبد العلوي ، نجد ان ارتفاعه الكلي لا يمكن أن يكون اكثر من تسعين أو مائة متر .

والزجورات ، كبقية آثار ما بين النهرين وقصورها ، تتركز على قاعدة منسعة من الاجر بحيث تقع في وسطها ، ولكن أحياناً تكون منحرفة فحوجة من جهات

(١) وربما كانوا يقيمون على قبة عرش آلهة القمر . ويوجد في العراق بلدة أثرية اسمها شيرقاط تقع بين الموصل وبغداد . انظر الصورة صفحة ١٧ (٢) بجوار مدينة الانصر في صعيد مصر .

هذه القاعدة . ويصل الصاعد الى القمة بواسطة مَرَقٍ حلزوني له إفريز مسنّن جيل يعطي رونقاً لبساطة البناء .

وكذلك توجد أيضاً بعض زجورات (اهرامات مدرّجة) لها سُلّم مزدوج . ولكن هذا الطراز مع انه أكثر زخرفاً وجمالاً فهو استثنائي نادر .

وكانت كل طبقة من طبقات الزجورات السبع تُدهن بلون خاصّ يختلف عن غيره ويرمز الى احدى الكواكب السيارة السبعة ، كأن الغرض من السبعة الالوان والسبع طبقات هو تذكير الرائي بالسبعة الكواكب السيارة (المتحرّية) .

فالدور الاول كان أبيض مدهوناً بالكلس (الجير) . والثاني أسود بالقير (زفت معدني) ، أما الثالث والرابع والخامس فانهم كانوا يشيدونهم بطوب مختلف الالوان أو متججّر بالحرّق حيث يكون له اللون الاحمر والازرق والبرتقالي ، أما الدور السادس فكان فضياً والسابع ذهبياً . وكذلك المصلي الذي في القمة فانه مكسوّ بصفائح الذهب ، والقمة التي تعلوه كانت تتألّق من بعيد فيخيل للناظر اليها انها كوكب دُرّي ساحر . وأحياناً تُعلّى التماثيل الضخمة المقامة على طرف آخر قاعدة بدهان ذهبيّ على مثال المعبّد .

وطبيعي ان كل من يرى مثل هذا الأثر الفخّم بألوانه الزاهية الخلّابة ، وآلته التلاشّة عند قوّته ، وزخارفه المنسجمة ، لا بدّ وانه كان يؤخذ بهذا المنظر ؛ ولذا نرى عُدّاً راّ لمؤرخي الاغريق على تحمّسهم وشططهم عند وصفهم له .

ولكن هذه الكُتَل الضخمة خاتّت من دقة الهندسة الداخلية التي نراها في الاهرام المصرية التي تشبها من الخارج ، حتى ان المتقبن الاثريين لم يستطيعوا أن يعثروا على غرفة واحدة في جوف خرائبها التي وجدوها عبارة عن اكوام من التراب والطوب .

وعلى طول طريق المَرَقِ الحلزوني ، وعلى مسافات قصيرة ، كان يُوجَد إمّا مُصليّ أو محراب (استراحة) لاجل راحة المتعبدين في صعودهم الشاقّ الى القمة .

وفي واقع الامر نجد ان الغرض الحقيقي من تشييد هذه الاطواد السامقة لم يكن لاجل إقامة الشعائر الدينية أو لتقديم فروض العبادة للآلهة ، بل كانت عبارة عن

مراسد فلكية مريحة للقساوسة العلماء فيها يقيمون لدرس السموات ورصد الافلاك ، لان علم النجوم ^(١) كان مرتبطاً بالدين في كلدة .

ولما انتقلت عبادة البابليين الى الاشوريين ، وكانوا حريين اكثر مما كانوا علماء ، تضائل حجم الزجورات لعدم اهتمامهم بها ، فلم يعد يرى في نينوى معبد غير مرتبط بقصر . فالبرج ذو الطبقات الذي قل ارتفاعه وانحط رواقه عما كان عليه في كلدة أصبح من ملحقات مساكن الملوك .

أما الفلكيون فانهم هاجروا باستمرار الى كلدة السفلى وقصدوا دور العلم هناك للدرس والتحصيل والرصد في مدينة بابل القديمة ، أم العلم .

وهكذا لم يبق من أثر لافخم وأعلى هذه الزجورات ، ألا وهو معبد بيلوس ^(٢) (Bélus) الشهير ، سوى أطلال معروفة الآن باسم بيرغرود ، لا تزال عليها مسحة من الجلال والروعة والجلال .

وهذا البناء الاثري لا يزال يرى في السهل المنبسط على عيين نهر الفرات ، وهو من بعيد عبارة عن تل تعلوه ركام بناء متهدم . وكأنه في مجوعه يتسلط على هذا السهل الفسيح من ارتفاع لا يقل عن واحد وسبعين متراً ، لذكر من يراه بصير كل كائن على وجه البسيطة .

ومتى غادر الدرة قرية الحلة ، الصغيرة الآن لقلة سكّانها ومساكنها ، وتركها جالسة فوق هامة مدينة بابل العظيمة التي طأطأت لها رأس أعظم ممالك العالم في إبان عظمتها وسوددها ، ثم اتجه بنظره الى خرائب بيرغرود الكثيرة ، ازداد تأثراً كلما اقترب منها ، خصوصاً عندما يصلها ويجول بين روائى خرائبها ، ويرى ذئاباً هزيلة تنهض مذعورة وتختفي هرباً من صوت وقع اقدام الانسان ، فيذكر ، وهو يبطأ بقدميه ترابها الصامت ، ما كان لهذه المدينة ، التي كانت ملكة آسيا ، من العظمة والسودد والهيبة والمجد ؛ ثم يذكر كلام النبي اشعيا في الاصحاح الثالث عشر ، من العدد الرابع عشر : -

(١) لعله يقصد علم الفلك (أو الهيئة) ، لا علم التنجيم

(٢) أبو نينوس (Ninus) الاشوري الذي أسس مدينة نينوى قبل ميلاد المسيح بألفي سنة كما ورد في الاساطير .

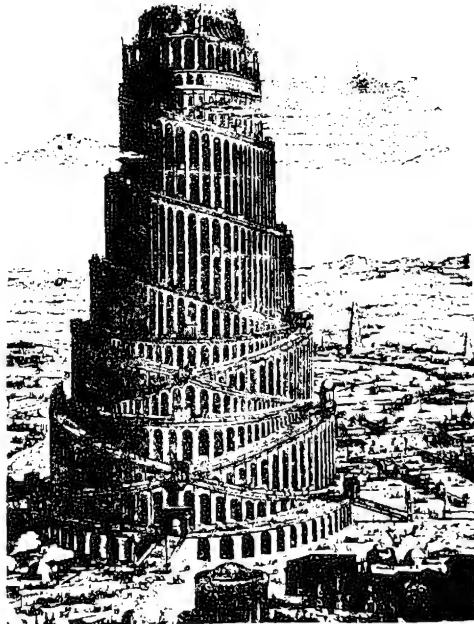
« ويكونون كظلي طريد وكغنم بلا من يجمعها . . . وتصير بابل ، بهاء الممالك ، وزينة غر الكلدانيين ، كقلب الله سدوم وعمورة . . . لا تستعمر إلى الأبد ، ولا تستكن إلى دؤور فدور . بل تبيض هناك وحوش القفصر ، ويملا اليوم بيوتهم . وتسكن هناك بنات النعام ، وترقص هناك معز الوحوش . وتصيح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعم »

٣ - القصور والحصون

كان تشييد القصور وتحصين المدن من أعظم أعمال هندسة المباني السكلمانية

الاشورية ، حتى ان أسوار بابل كانت تعدّ احدى عجائب الدنيا السبع .

ولقد رآها هيرودوتس ووصفها وصفاً شاملاً ، فذكر ما كان لها من الاتساع والارتفاع والسُمك ، والحدق المحيط بها ، والابراج الضخمة التى كانت تعلوها على مسافات متقاربة ، وأبوابها النحاسية التى بلغ عددها مئة .



وهنا لسنا نرى سبيلاً

(صورة تخيلية لبرج بابل)

الى آهام المؤرخ الاغريقى بالغلاة والشطط فى الوصف ، فان ما عثر عليه المقبول الاثريون بعد رفع الاتربة عن هذه الاسوار كشف لنا عما هو فوق وصفه بمراحل .

حتى ان هيرودوتس ودودورس حين ذكرا الاسوار التي كانت تسير عليها عدة مركبات بعضها الى جانب بعض لم يذكر الحقيقة بأكملها ، كأننا كانوا يخشيان أن يُتَّهما بالغلو .

ولا أدل على ذلك من نفس أسوار خورزباد التي امكن قياسها . فإن سُمِّكها كان لا يقل عن أربعة وعشرين متراً . وكانت الابنية عند الابواب تمتد الى مسافة لا تقل عن سبعة وستين متراً نحو الداخل . فالارتفاع لابد وأنه كان يتناسب مع ذلك . وقد قدره ديودورس ، مستعيناً بتقدير ستيزياس (Stésias) لاسوار بابل ، بثمانين متر . وهذا التقدير لا يدهشنا مطلقاً ، لان قياس الارتفاع من قاع الخندق الى أعلى شَرَفَة السور ، لا يمكن أن يكون أقل من ذلك . وقد وجدنا ، حتى في أبنية القصور الداخلية ، جدراناً يبلغ سُمِّكها ثمانية أمتار .

وهذه الاحجام الضخمة ، التي أُلْقَتْ في روع سَيَّاح الاغريق ان العماره الاشورية كانت فَنّاً راقياً ان دَلَّت على شيء من الوجهة المعمارية ، فانها لاتدل إلا على ان فن إنشاء المباني كان عند الاشوريين في بدأته وعلي الفطرة . لأن التماذي في سُمِّك وارتفاع الجدران هما من الوسائل الساذجة البُدائية التي يُلجأ اليها لحماية مكان ما ، لانها لاتحتاج الى مهارة هندسية أو عبقرية علمية ، بل كل ما يلزمها هو الكثرة في عدد الاليدى العاملة ، واليسرة في تدبير مواد البناء وأهمها الطوب الذي يخبرنا هيرودوتس انهم كانوا يجلبون طينه من تراب الخنادق التي كانوا يحفرونها حول المدن .

ولا شك انه كان يسهل على بابل أو نينوى احتمال الحصار الطويل وهي محمية بمثل هذه الاسوار والخنادق كما رواه المؤرخون . فقد كانت آلات الهدم بأنواعها المعروفة وقتئذ كالمنجنيق والدبابة والمنسف وغيرها لا تؤثر في مثل هذه الاسوار الضخمة .

وكذلك إتساع قِمَّة الأسوار ، وكثرة عدد الابراج كان يسهل حشد جيش عظيم لرد حملات الهاجمين من السهل .

أما المجاعة التي كان يمكن أن تنسب عن طول زمن الحصار ، فهذه قد عرفوا

كيف يمكن تغاديا ، وذلك بالتوسُّع في مساحات الأراضي التي كانوا يخططون عليها مدنها لكي يتمكنوا من ترك^(١) الكثير من الأراضي خالية من الأبنية بين المساكن ، حتى إذا اضطرتهم الحاجة الى طعام زرعوها واستعانوا بما تنتجه لهم على دفع غائلتها خصوصاً في أوقات الحصار .

وإذا أخذنا بصحة هذه الفكرة ، وصدقنا أقوال قدماء المؤرخين ، كان مسطح أرض بابل يجب أن يكون معادلاً لسبعة أمثال مساحة مدينة باريس ، أو ما يقرب من مساحة كل إقليم السين (La Seine) في فرنسا تقريباً

وهكذا كان الخطر الوحيد الذي يهدد هذه العواصم الفسيحة في زمن الحصار مائلاً في النهر الذي كان يخترقها ، وكانت تتوقف على مياهه حياة سُكَّانها ، وذلك لأن الفتحات التي كان النهر يجتاز تلك الأسوار من خلالها كانت من أكبر أسباب الضعف والخطر على هذه المدن ، لأن مياه الفيضانات كانت تنخر الطوب الضخم المبنية به هذه الأسوار وتعرضها للتفكك والبلاء .

وقد جاء في وحي على نينوى (في التوراة) بينما كانت تعاني أحد حصاراتها ،^(٢) ان « هذه المدينة لا يمكن أن تؤخذ بهجوم أعدائها ، ما لم يجاهر النهر نفسه بعدائه لها » .

وهكذا تحققت هذه النبوءة بنهاية هذا الحصار الذي تمكنت من مقاومته بلا عناء بدفاع استمر أكثر من سنتين كان الخطُّ حليفهما فيهما . ولكن حدث في السنة الثالثة للحصار ان هطلت أمطار غزيرة ، ففاض نهر الدجلة ، وغمرت مياه فيضانه قسماً من المدينة ، فانهار جزء من سورها كان اتساعه كافياً لتدفق جيوش العدو المحاصرين اليها .

وحدث كذلك بينما كان الملك بلشاصر مُنغمساً في قُصُوفه وفجوره ، مُطمئناً الى مناعة أسواره ، ان عدوه كورش (Cyrus) تمكَّن من تحويل جانباً من مجرى

(١) نحو تسعة أعتار مساحة أرض المدينة كانت تُترك للنباتات والحدائق ، والمقاول .

(٢) راجع صفحة ٣٧ والسطر الخامس من هذا الكتاب في الكلام عن الملك سارداناپال الاساطيري . وقد ذكر الاسم « ساروتاناپال » بالواو بدل الالاء خطأً

نهر الفرات (١) ودخل مدينة بابل بجيوشه الجارية من الفتحة التي كانت المياه تمرّ منها ، سائراً في عقيق النهر الذي كان قد جفّ ، وهكذا قضى على ملك الكلدانيين .
والى الآن لم نتكلم إلا عن ضخامة الأبنية الأشورية ، ولذلك بقى علينا أن نذكر ما نعلمه عن محاسنها الخاصة

ولكننا لن نجد في فنّ العمارة الأشورية ما يقتضيه سموّ الفن من التنويع والتغيير في الأشكال الذي يستمدّه هذا الفن من موارده الخاصة . لأن العمود المنعزل ، وكذلك تآلف واندماج الخطوط المستقيمة والخطوط المنحنية ، وخصّة البناء في مواضع إزاء ضخامته في مواضع أخرى ، كل ذلك كان مجهولاً أو مهملاً في آشور . فكل أبنيتهم أو أجزاء منها كانت عبارة عن متوازيات الاضلاع المتقابلة ، وخطوطها واقفة جاسئة ، وزواياها قائمة .

ولأجل زخرفة منشآتهم كانوا يستعملون فنون غير فن العمارة ، كفنّ النعش ، أو التحلية بالطوب أو البلاط الملبّس بالميناء (ولعلّه يقصد القيشاني أو ما يشبهه) وهكذا كانوا يلجأون الى التماثيل الضخمة ، والنقوش البارزة ، أو الزخارف المتعددة الألوان لتغطية الحيطان ، وغير ذلك مما جعل للأبنية الأشورية رونقاً فخماً بهرعيون الأغريق الذين رأوها في إبّان مجدها ، وأدهش عقول المتقنين المصريين عند ما رأوا خرائب قصورها ومعايدها في أطلال نينوي وخور زاباد .

أما أبواب المدن فأنها تعدّ بحق من أبداع الآثار التي تركها الأشوريون ، وذلك لما كانوا يبذلونه من العناية والمهارة في صنعها وزخرفتها . وقد كانت على شكلين ولغرضين . فمنها ما كان معدّاً لمرور المشاة ، ومنها ما كان لدخول الركبان والفرسان ، أولاًجل مرور مركبات الحرب ، أو عربات الفلّاحين . وهذه الأخيرة كانت في غاية البساطة لأنها كانت معرضة أكثر من غيرها للصدمات ، على عكس أبواب المشاة

(١) هو أطول واكبر وأنهر في آسيا الفريسيّة ، وله منبعان في جبال أرمينية . أحدهما الجنوبي واسمه مُرادشاي يسير مستقلاً نحو ٢٧٠ ميلاً حتى يلتقي بنهر « فرات » (Frat) عند بلدة كيشان مادن فيتكوّن من مجموعهما نهر الفرات (Euphrate) الذي يسير جنوباً حتى يتلاقى بنهر درجلة (Tigris) قبلما يصل الى الخليج الفارسي بنحو ستين ميلاً . ويُسمى الجزء الأخير المؤلف من مجموعهما « شطّ العرب » .

التي كانت آية في الزينة والجمال . وكانت الأبراج ذات الشرفات المسننة تحميها من كل جانب ، وعند مداخلها ترى تماثيل ثيران ضخمة يبلغ ارتفاعها من خمسة الى ستة أمتار ، وهي من نحف فَن النَحْت الآشوري . أما الجزء الأعلى من الباب فكان على شكل عَمْد له « شَمْبَران » من القيشاني ، أو الطوب الملون بألوان زاهية ورسوم فاتنة

وعلى طول الممر الداخلي العريض صفين من التماثيل التي تشبه تلك التي في متحف اللوفر (بفرنسا) ، وهي تصور جباراً يحنق أسداً تحت ساعده ^(١) الايسر ، وهي واقعة كأنها من حراس مدخل المدينة أو رمز عظمتها .

وعلى جانبي الممر شيدت أبنية تحوي عُرقاً لاقامة الحُرَّاس أو لتكون كأوى يلجأ اليه عابر السبيل للتخلص من حرارة الجو خلف جدرانها السمكية الضخمة .

وكانت بوابات المدن والمباني العظيمة بمثابة « الساحات العمومية » عند اليونان (Agora) أو الرومان (Forum) حيث كان يجتمع الناس ليتباحثوا في الشؤون العامة أو لتبادل الآراء والفوائد العلمية ، أو لسماع الاخبار ، أو للتجارة ، أو مكاناً للتقاضي .

وقد رأينا في التوراة ان القضاة قديماً كانوا يجلسون للحكم عند أبواب المَدُن ، وكان مردخاي (Mardochée) دائماً يجلس عند باب القصر ، وبوعز (Booz) يجمع أقاربه عند باب المدينة . ومن هذا الاستعمال جاء اسم الباب العالي (Sublime Porte) الذي استعمل أولاً لمدخل السراي القديمة في الاستانة (القسطنطينية) ، ثم أطلق فيما بعد على المجلس الذي كان ينعقد فيها ، ثم أخيراً على الحكومة التركية نفسها .

ويجب أن نتذكر هذه العادات لنلم بما كانت عليه أهمية تلك البوابات الانثرية التي نجد بقاياها عند مداخل مُدُن آشور .

وقد كانت قصور مابين النهرين عبارة عن مُدُن محصنة قائمة بذاتها في احضان

المدينة الشعبية، وكانت جدران هذه القصور وأبوابها مبنية على طراز، وممك، ومستوى ما يلائها من المدينة الاصلية .

وكان ظهر القصر الملكي يستند دائماً الى ناحية من سور المدينة ، وله منفذ يبري الى ما وراء السور من الحقول أو الحلاء ، بحيث يُمكن للملك وأعوانه ان يهربوا منه ، أو يستعملونه لجلب المؤن أو المعونة من الخارج ، كلما حدثت ثورة في الداخل . وهكذا كان طغاة ملوك الشرق الاقدمين يستعملون ضد رعاياهم ذات أساليب الدفاع التي كانوا يستعملونها ضد عدوهم الخارجي وكانت المسالك السرية ، وممك الجدران ، والتكنات ، متشابهة ولكنها مستقلة بعضها عن بعض .

واعتماد ملوك آسيا أن يعيشوا في خفاء تام ، حتى ان نسايم ما كانت دائماً تعرف وجوهمهم ، وكانت كل امرأة من نساء الملك لا تختلط بغيرها من نسايم ؛ لانهم "كن" يعيشن في جهات منفصلة من بيت الحريم الذي كان عادة عبارة عن بناء منفصل عن القصر

ولو رجعنا الى النسق الذي كان مرعياً في هندسة قصور الملوك في آشور لنحققنا ان سرجون وسنحاريب وأشور بانيبال كانوا يتبعون تلك الانظمة والعادات ، وكذلك غيرهم من عتاة آسيا الموصوسون ، على مارواه هيروdotus في قصة سمرديس^(١) المجوسي: ذلك ان سيداً فارسياً اسمه أوتان ، كانت له ابنة اسمها فيديم ، زوجة السيد سمرديس المجوسي . سألها والدها مرة عما اذا كانت حياتها رغبة وهينة مع زوجها « ابن كورش » فأجابته فيديم « انها لم تر قط وجه هذا الرجل الذي قبلها في عداد نسايم » . فقال لها والدها أوتان « اذا كنت لا تعرفين سمرديس (زوجك) فسلي عنه رفيقتك الاميرة أئومنا » ، فأجابته قائلة ، « ليس في استطاعتي ان أحادث أئومنا ، ولأن أرى أي امرأة من النساء الأخريات » .

ولما أرادت مرة أن تتحقق ممّا اذا كان زوجها أصلم الأذنين ، اضطرت الى المجازفة بحياتها إذ اجترأت وأمرت يدها على رأسه بينما كان راقداً الى جانبها في ظلام الليل مستغرقاً في نومه .

(١) ويُدعى أيضاً بـ *بارديا* (Bardiya) ثاني اولاد كورش الذي ذبحه أخوه فيروز .

وبما أن قصور الآشوريين لم تكن تُبنى إلا من طابق واحد ، فكانت بطبيعة الحال تشغل مساحة واسعة جداً . فأطلال قصر سرجون في خورزباد تدل على أن عدد الغرف كان أكثر من مائتين ، عدا العدد الوافر من الابنية والقاعات والرداه (جمع رُدْهَة) الفسيحة . وأنا لا أعرف مبنى أثري في كل العالم يشغل مساحة من الأرض تعادل مساحة هذا القصر سوى هيكل أمون (Ammon) في طيبة (المصرية) ، ومعبد سريرنجام (Pagode de Sriringam) في جنوب الهند .

وكانت القصور (الملكية طبعاً) ، يتألف كل منها من ثلاثة مجاميع من الابنية . أولها « السراي » وهي عبارة عن عُرف (جناح) الملك الخاصة وقاعات الاستقبال والتشريفات ، وثانيهما « الحريم » حيث توجد مخادع زوجات ونساء الملك ، وثالثها « الخان » وفيه حُجِر ضباط القصر ، ومرافق القصر ، كالحارن والمطابخ والاستطبالات (مرابط الخيل)

وهذه الابنية المختلفة كانت مؤلفة من عُرف مستطيلة تحيط بافنية لها ذات الشكل . وكانت قاعاتها الكبيرة جداً ، تلوح لطلوها كأنها ضيقة كالدهاليز . وربما كان السبب في ذلك أن الآشوريين لم يستعملوا في أبنتهم غير الخشب والآجر ، ولأنهم كانوا يجهدون كيفية الاتفاف بالعمد لرفع السقوف .

وفعلماً لم يعثر المنقبون في كل ما كشفوا عنه من الأرض المفروشة بالطوب في هذه الخرائب على أثر يدل على مكان كان يقف فيه عمود واحد ، وكل ما وجدوه فيها كلها هو بَدَنَ عَمُود . غير أننا نعلم أن من جملة الأشكال التي كانوا يستعملونها لزخرفة قصورهم هي أشكال أعمدة بتيجانها وقواعدها مرتكزة أحياناً على تماثيل أسود ، ولكن هذه الأعمدة كانت دائماً مستندة الى الجدران ولم يكن لها أية فائدة عملية سوى الزينة . نعم ان بعض الرسوم البارزة تحملنا على الاعتقاد بأن هذه العمود كانت أحياناً تحمل سقوفاً أو حدائق ، ولكن الذي يبدو لنا هو أن النقاشين الآشوريين الذين صوروا هذه الرسوم كانوا قد توسعوا بجناهم حتى سبقوا مهندسيهم المعماريين الذين لم يكونوا قد توصلوا بعد الى صنع الأصل

وقد وجدوا في داخل اسوار كل القصور الملكية الآشورية بقايا هَرَم آشوري

مدوّج (un zigurat) . وهذا يؤيد ما سبق ذكره وهو أن المعبد الكلداني آل الأمر به في ما بين النهرين العليا الى ان صار أحد مرافق المسكن الملكي .

ثم انه يندر وجود مثيل للزخارف التي كانت تزين تلك القصور . وسنفيض في وصفها عند الكلام على فن النحت والزخرفة ، وما كان يكسو الحيطان من الرسوم الناتئة وأفاريزها المصنوعة من الخرف أو القيشاني بألوانه الزاهية التي تبهر الأنظار ، والمناظر الكاملة المصورة عليه أو على الطوب الخزفي ، وكذلك فن توفيق (توليف) الألوان وانسجامها الذي كان فيه سرّ جمال هذه الحليات المعمارية . وقد عثروا بين هذه الزخارف على صور أشخاص ملوّنة مما يعزز رواية ديودورس الآتية : -

« وكانوا يصوّرون على الأبراج والأسوار كل أجناس الحيوانات ، نائمة وملوّنة ، بغاية الاتقان . فن هذه الرسوم صورة صيّد وقصّ تشمل أجناساً عديدة من حيوانات برّية لا يقل ارتفاعها عن أربعة أذرع . وكانت سميراميس ممثلة في هذا الصيد ممطيّة فرسها وهي تطعن بُرمجها نمراً أرقطاً (عُسْبُر) ، وبالقرب منها زوجها نينوس يصرع أسداً بضربه بالحربة . »

ولكني نلّم بجملة ما كانت عليه قصور الآشوريين يجب أن نرجع الى الوصف الذي أورده عنها « المسيو بلاس » القنصل الفرنسي الذي عقب « بوتا » في رفع الأثرية عن قصر سرجون العظيم في خورساباد : حيث قال : -

« إذا نظرنا إلى النقوش والرسوم البارزة في قصر نينوي من حيث مجموعها لاحت لنا كأنها قصيدة من الشعر الحماسي تشيد بمجد مؤسّسها . فهو البطل الأوحد الذي تدور حول شخصه كل فصول الرواية ووقائعها . وأسوة بالقصائد المكتوبة ترى هذه الرسوم تبدأ بالصلاة والسلام ، ثم بالتوسل إلى الأرواح العلوية الممثلة في صور مقدسة على الاعتبار . وبعد الفراغ من التغرّل بإبطال آشور وحماها وتمجيدهم ، تدخل في صلب القصّة ، التي يستغرق سردها رسوماً كثيرة . وهذه القصص طليّة تُثير العواطف . وكان أهالي نينوى يُسرون ويتلذّذون بهذه الذكريات التي كانت توافق كرامة الأمراء وروح الشعب الحربية . وكانت أطول واجهات القصر ، وكذلك الأفنية والدهاليز ، وهي أول ما تقع

• عليه عين السائح ، فيأخذ بذكر الأنثى الملكية . وكانت احتفالاتهم تبلغ منتهى العظمة ، فترى فيها مواكب الأسرى الذميين ، الذين يدفعون الجزية ، يمشون أمام الملك وهو جالس بين عظمائه وحاشيته تلوح عليه سماء الكبرياء والصلف والازدراء ، والشعب يمر أمامه ، بلا تراحم أو تدافع بالمناكب ، وعلى وجوههم جميعاً أمارات الاعتزاز بالنفس والكرامة اللائقة بالتشريقات الملكية .

• أما في الغرف الأصغر حجماً ، والأبعد للداخل ، وعلى مقياس أصغر للرسم ، فقد كان الفنانون أكثر حرية في التفنن بتصوير أساليب السيّر ، والمواقع الحربية ، وتساقي الجبال ، وإقامة الجسور ، وعبور الأنهر بكيفية واضحة . فهنا ترى رسوم الملاحم ، واختلاط الجنود المتحاربة جماً للجسم ، وهناك ترى الجنود المدرّعة تترشق بالقوس والسهم ، وتتلقّى السهام والنبال ، التي تملأ الفضاء ، بالترس أو الدّرق ، وهناك ترى الجرحى وجثث القتلى تغطي الأرض بكثرتها ، أو ملقاة في مياه النهر ، أو منبطحة تحت دواليب المركبات ، أو مبقورة البطون والنسور تتشّش أحشاءها

• وكان الملك يشترك بنفسه في المعارك تارةً ، راجلاً (على رجله) وطوراً فارساً (على ظهر فرس) ، وأحياناً على مركبته الحربية تجرّها الجياد المهيّمة . وأحياناً ترى صورة معبود في قرص مجنّح ، أو عُقاباً حلّقاً فوق رأس الملك كأنه يناصر الأشرار .

• ثم يبدأ الهجوم فترى آلات الحرب تضرب الاسوار ، وواضعي الألغام يتقون الجدران ، والمحاصرين يُدافعون بقذف الحجارة أو السوائل المحرقة ، أو المشاعل الملتبّه وغيرها ، وأخيراً عندما تنفذ وسائلهم وتضيق بهم وجوه الحيلة يرفعون أذرعهم نحو السماء كأنهم يلتمسون الرأفة من المنتصرين غلاظ القلوب . ثم ترى المحاصرين محمّلين بالأسلاب والغنائم ، يسوقون أمامهم جماعات الأسرى التعساء وقد اختلط الرجال بالنساء اللواتي يقنّدن أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن ، اختلاط الحاييل بالنابل ، ووراءهم مواشيهم وهم سائرون إلى منقاهم حيثما ينتظرهم العمل المرهق في تشييد بناء تذكاري لتخليد ذكر هذا النصر المبين .

• ثم نرى الملك نفسه يسيطر على بناء القصر . فنراه يأمر ، وجنوده بعضهم المرفوعة تنفذ الأوامر وتراقب جماهير العبيد (الأسرى) وهم يعجنون الطين ،

، ويضربون منه الطوب، ويحملونه على أكتافهم . ثم يقيمون من التراب، سطحاً مائلاً ،
، يدرجون عليه كتل الأحجار الضخمة بكل عناء ومشقة بواسطة صفوف من
، العمال طويلة جداً . ثم تلي هذه الرسوم رسوم حروب أخرى وانتصارات جديدة ،
، وكأن المصور لا يسأم ولا يمل تكرير هذه الرسوم وأمامه في كل مرة مادة
، جديدة يستدب منها لفنه ما يحلوه من الحقائق المدهشة .

، ثم يعقب ذلك منظر يمثل انتقام لا يعرف الرحمة ، وفيه ترى أنهم كانوا يعمدون
، إلى سلع الأسرى وهم أحياء ، أو شطر أجسادهم بالمشمار ، أو خوزقتهم
، بالخازوق ليوتوا عليه ، أو أنهم كانوا يصلبونهم ، أو يحزون رؤوسهم في حضرة
، الملك ، بينما يقف كاتب لا يظهر عليه أدنى تأثر بهذه المناظر المريعة ، لكي
، يدون على ورق البردي حساب الرؤوس التي تُقطع . وأخيراً ترى صورة الفصل
، الأخير من هذه المأساة التي تقشع من فظاعتها الأبدان ، إذ ترى فيها الملك وهو يقف
، بأصابع يديه عيني أسير يقودونه اليه بحبل مربوط في خزامه (حلقة يُشد
، فيها الزمام) مخزومة في شفتيه . وقد كان هؤلاء الرواة المصورين أئماً جداً في نقل
، ما يصورونه من وصف تلك الفظائع البربرية ، فلم يحاولوا أن يلطفوا شيئاً من
، شدة وقعها في النفس ، وذلك لكي يقدموا للمطلع صورة صحيحة من المشاهد
، الوحشية التي كان لا يستهجنها الآشوريون ، والتي جاء وصفها في مواضع كثيرة
، من التوراة شاهداً على صحتها .

، ويحيي في المرتبة الأولى ، بعد صور البطولة الشنيعة التي رأيناها ترواً
، صور الصيد والقنص ، لأن الملوك الآشوريين ، الجديرون بأن يُعدوا بحق أبناء
، غرود ، كان لهم وللع شديده هذه الرياضة العنيفة ، التي هي عبارة عن حرب حقيقية
، مصغرة . فترى في أطلال كويشديك (Koyoundjik) صورة الملك وهو يطارد
، الوعل والغزال ، وخاصة الأسد الذي تدل كثرة رسوم صيده أنه كان
، الطريدة المفضلة .

، وكان الملك يطارد هذه الحيوانات وهو في مركبة أو على صهوة جواد أو على
، قدميه ، وسلاحه الحربة أو النبل أو القوس والنشاب التي كان يجيد استعمالها ،
، وأحياناً نراه والخنجر في يده يتلهى بطن أعداءه اللشعين لكي يقهرهم .

، وأخيراً ، وبعد أن يكون قد ملّ القتل والتعذيب ، يأخذ في التقرّب الى الله ، بتقديم باكورة صيده . ثم نراه في أقاصي بيت الحريم مضطجماً على فراش وثير . وأمامه مائدة مثقنة بأطياب المأكولات ، وتجاهه نرى الملكة تشاركه في مسرات الولية . وبين أيديهم القيان ^(١) يساو قنن ^(٢) غناءً بأنغام القيثارة ، وهي آلة الطرب المفضّلة عند شعراء التوراة .

، وهذا المشهد المأخوذ عن أطلال قوبوندجيك ، لم يُر مثله في « خورزباد ، حيث كان الملك سرجون الرهيب لا يَسُدُّ الا في بهاء عظمته الملوكة » .
، على أن هناك رسوماً بارزة أخرى تطلعننا على تفاصيل حياة عامّة الشعب ، الخاصّة . فمنها ما يُرينا الاشوريون مشغولون في مهامّ منازلهم اليومية مثل تنظيم الفراش ، وثني اللحوم ، وحسن ^(٣) الخيل وتضميد جراحها ، وما إلى ذلك من الأعمال المشابهة . أو نرى صوراً لأناس سائرين بجانب مركبات محمّلة إمّا بعائلات ، أو بغلال أو بأشياء متنوّعة ، تجرّها أبقار مستّمة يظهر أنها من أبقار الهند .

، وبعض الصور تمثّل لنا مشهد وقوف تلك المركبات للاستراحة وقد رُفعت
، عن رقاب الابقار الأنيار ^(٤) لتأكل ، بينما الرجال يتناولون الطعام من صحاف
، أو يشربون من القرب .

، وفوق هذا الشريط من الرسوم البارزة التي وصفناها للقارىء ، على قدر الامكان ، نجد شريطاً زخرفياً من طراز آشوري محض ، وهو عبارة عن صفّين من الآجر
، الخزفي ، أرضيته زرقاء وعليها زخارف ملونة مُقتبسة من الحياة النباتية
، والحيوانية .

ونحن حين نطالع هذا الوصف الدقيق الذي لم يتعدّ فيه النقّاش دائرة الحقيقة ، على ما نظن ، نرى هذه النقوش العجيبة في نضارتها كأنما انتهى المصوّر من رسمها بالامس فقط .

(١) جمع كلمة قَيْسَنَة وهي الامة أو المنتسبة .

(٢) المسادة أو المسيرة في الموسيقى هي متابة الفناء بالآلات .

(٣) حسن الدابة أي نقض عنها التراب بالمحسّة .

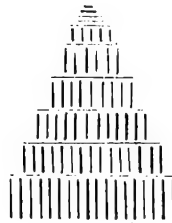
(٤) أو الثيران جمع كلمة يَنْسَر ، وهو الخشبة المترعة في عُسقي الثورين بأدائها .

على ان مؤرخي الاغريق الذين رأوا هذه النقوش المدهشة لم يتبادوا في الوصف بهذا التدقيق البديع .

ان الفضل في بعث ذلك الماضي السحيق من قبره يعود إلى قدرة العلم الحديث الآن على إنطلاق رمال ما بين النهرين الخرساء ، كما سبق وقطع صمّت ابوالهول المصرى قبل ذلك بزمن يسير . فنشد اقل من قرّن بدأت تعود الى مسرح التاريخ شعوب كان لها أعظم شأن في تكوين الحضارات القديمة قبل ان يسدل عليها ستار الظلام والنسيان .

فتحن الذين كنا نمقتهم لما كانوا عليه من خشونة وقسوة ، وننظر الى ماثرهم كأنها من نسج الخيال ، نرى انفسنا الآن مضطرون الى إحناء رؤوسنا تقديراً لما تركوه لنا من الاعمال الباهرة . فقد كانوا أساتذة أساتذتنا ، وذلك لأنهم هم الذين علموا قدماء اليونانيين ، ولأنهم ساهموا بنصيب وافر في وضع اساس بناء الحضارة العظيم . وهذه الامبراطوريات القديمة تمثل الحد الفاصل بين إنسان الزمن البدائي المتوحش وانسان الزمن الحالى المثقف .

ونرجوانا باخراج الشعوب التي بادت ودرجت في اكفائها الترابية منذ أقدم الازمان من ظلام قبورها الى نور المدنية الحديثة تمكن من فهم كيفية تكوين هياتنا الاجتماعية الحالية . وربما توصلنا الى كشف القناع السحري عن مستقبل المدنية الغامض .



الباب الثامن

النحت، والتصوير الملون، والفنون الصناعية

١ - النحت

لم يكن في كل بلاد ما بين النهرين (على ما ظهر لنا الى الآن) ، سوى فن واحد . فلم يكن هناك فنّ كلداني وآخر آشوري .



وكما حدث في مصر ، وفي كل الامم ، قد بدأ هذا الفن ، كغيره من الفنون ، جنيئاً فطرياً ، ثم اخذ ينمو ويدرج ، متسكماً في الظلام ، يتأسس طريقة بتقليد الطبيعة ومحاكاتها بأسلوب آخرق ساذج ، ولكنه امين على قدر الامكان . ثم رأيناه يبلغ أوج مجده وبهائه ، ويعقب ذلك طور الركود بالركون الى النقل وتقليد النماذج الشهيرة بلا تجديد او إلهام ، حتى ادركه دور الانحطاط فالموت .

وهذا التاريخ ، الذي ينطبق على كل المذاهب الفنيّة ، يمكننا تطبيقه على كثير من أمم العهد العابر او الحاضر . ولكن الباحثون لم يتمكنوا الى الآن من العثور على كل صور التطور الفني في ما بين النهرين ، لآل كثير من الفجوات في تسلسلها يضطرم الى الحدس والتخمين ، وينعهم من تحديد الطريق التي سلكها الفن تحديداً واضحاً . وعنى ان تهدينا اعمال الحفر والتنقيب في مستقبل الايام السبيل الى ملئ هذه الفجوات باكتشاف آثار جديدة توقفنا على إحكام الارتباط والتدرج بين المجموعات التي وصلت الى ايدينا .

أما ما عثرنا عليه الى الآن من اعمال النحت فينحصر في بعض نماذج من عهدين مختلفين ، احدهما العهد البدائي اى عهد نشوء هذا الفن ، والاخر عهد بلوغه أوج عظمته ، وعندما أخذ يتحوّل من أن يكون فناً الى عمل نمطي (معطر النسق) او عرقي .

فن التماثيل التي نَبَشَها المسودى سارزاك في « تل لوح » (Tel-Loh) في بابل ،
وُنُقِلَت الى متحف اللوفر بفرنسا ، لم نَهْتَدِ الا الى طور قديم جداً من اطوار فنّ
النَّحْتِ في ما بين النهرين .

وما عثر عليه المتقبون في نمرود وفي خورساباد وفي كويوندجيك يذل على العهد
الذي فيه ترعرع هذا الفنّ . وسما . على انه انقطع وقتئذٍ عن الأخذ عن الطبيعة ، وأخذ
يسير طبقاً للقواعد والتقليد (العُرف) ، وكان كلما طال عليه العهد ، اُسْمِ بطابع المحافظة
على الشكل المألوف أو الأصول المرعية . وبعد عن حرارة الحواسّ الفنيّة .

ولكي نحكم على ما بلغه فنّ النحت بعد ذلك ، يجب أن نجد في تلال بابل من
الاعمال الفنيّة الكثيرة التي تَمَّتْ ، على ما نعلم ، في عهد الملك نبوخذ نصر ، والتي
لا بدّ وأن يكون باقي منها ولو بعض انقاض تحت الرمال .

أما من حيث فخامة فنّ النحت فانه فاق في عهد الامبراطورية الكلدانية الثانية
ما كان عليه في عهد ملوك نينوى . بقي علينا أن نعرف ما إذا كانت براعة الفنّ أم
نفاسة المادة التي صِيغت منها الرسوم الناتئة أو التماثيل الذهبية الفخمة هي التي اجرت
قلم هيروودنس وديودورس بالإشادة بذكر ما رأياه . وهل كانت توجد عندئذٍ نهضة
فنية حقيقية ؟ هذا ما يصعب تصديقه ، لأننا نرجح ان ملوك بابل المتعجبون دفعهم
الحسد الى طمس مجد اسلافهم النينويين ، فأكثرنا من كَيْة ما صنعوه من المنتجات
الفنيّة ، وصرفوا النظر عن جودة النوع والقيمة الفنيّة ، وعمدوا الى تقليد النماذج الشهيرة
التي كانت تزدان بها (نينوى) عاصمة الشمال بدلاً من التريث وانتظار إلهام فنيّ مُبَشِّر .
ثم ان هناك نقطة جديرة بالالتفات والاهتمام لأنها تدل على شيء من الاختلاف
بين صناعة نحت التماثيل في بابل وفي آشور . فالمقبون لم يعثروا على تماثيل منزلة بعيدة
عن الجدران وظهورها منقوشة بكل عناية واتقان إسوة بوجوهاً إلا في أطلال تل لوح
البابلية . وهذه التماثيل تُعدّ نماذج من فنّ النحت الساذج ولكنها في ذات الوقت
تدل على حيويّة فنّ نحت التماثيل وأمانة المثاليين .

أما في آشور فقد كان جُلُّ اهتمام فنّ النحت منحصراً في الرسوم والنقوش البارزة .

أما التماثيل المنزلة النادرة ، كتماثيل الاله نيبو (Nébo) وتمثال الملك اشور نازير پال (Assur-uazir-pal) فانها أُعِدَّت لكي تستند الى جدار ، لأن الذين تحتوها لم يحرصوا اهتمامهم إلا في الجهة الامامية فقط وتركوا الجوانب والظهور بلا تسوية أو نقش .

ويظهر ان التماثيل المنفصلة عادت الى الظهور في بابل في عهد الامبراطورية الاخيرة الزاهر . وقد روى هيرودوتس وديودورس انهما رأيا منها في معبد بعل تماثيلاً هائلة الحجم من الذهب .

ولكن تماثيل تل لوح التي اكتشفتها بعثة السيودي سارز بك ، واهدتها الى متحف اللوفر (الفرنسي) ، ويظن أنها أقدم تماثيل أرض ما بين النهرين ، ليست أقدم من تماثيل «الكاتب» (Scribe accroupi) أو تماثيل «شيخ البلد» (Sheikh-el-balad) المصريين . ويمكن بوجه التقريب تحديد تاريخ صنعها بثمانية عشر قرن قبل التاريخ الميلادي ، وقد وُجد عليها اسم جوديه (Goudéah) الذي يُحتمل أن يكون اسماً للملك بابلي . ولكن ليس هذا الاسم المجهول الى الآن هو الذي يحملنا على تقدير تاريخ نحت هذه التماثيل ، بل ان نسق الحروف التي تتكوّن منها الكتابة المحفورة عليها هو الذي يحملنا على هذا التقدير التقريبي .

كذلك لا يمكن أن تكون هذه التماثيل من آثار الفن البابلي العتيق ، لأن الذهب الذي غشاها أجيالاً عديدة كان أجدر بإثارة شهوة ونهم الفاتحين الذين تعاقبوا على هذه البلاد أجيالاً عديدة ، سواء أكانوا عيلاميين (élamite) أو نينويين .

إذن لا بد أن تكون بابل قد احتفظت ببعض التقاليد التي لم تكن مرعية في شقيقتها نينوى .

على ان هذه التماثيل ، وان كان عددها محدوداً ، أم كانت واقفة أو جالسة ، أو ناقصة الرؤوس ، لها أهميتها العظمى من حيث تاريخ الفن ، لأن عليها طابع السماجة والسذاجة . وإسوةً بأقدم ما عُثر عليه من التماثيل المصرية (في وادي النيل) يظهر عليها مقدار الجهود الذي كان يُبذل في سبيل إتقانها والوصول بها إلى أقرب

ما يمكن من حدود الطبيعة . حتى ان الانسان ليعجب بنوع أخص من أوضاع أطراف الجسم والدقة المتناهية في اظهار نتوءات العضلات للتعبير عن الحركة .

وقد عثروا على رأسيّ تمثالين يظهر أنهما من صنّع ذلك العهد ولكنهما قليلا الإهية لأنهما مهشمان مهشما مشوها . فاذا كان فنّ النحت البابلي قد استمر سائرا في هذا الطريق دون توقّف ، فانه لا بُدّ وأن يكون قد توصّل إلى إنجاز أعمال من بدائع الفنّ في غاية الأهمية سيكتشفها المتقّبون يوماً ما .

ولسوء الحظ ان المتقّبين عندما يعودون الى تتبّع آثار الفن من جديد ، سيكون ذلك في غرود ، بأشور ، حيث كان عمل الفنانين الرسمي مقصوراً على تمجيد الملوك ، ولكنهم سيجدون أن هذه الآثار وان كانت تفوق آثار مثالي سيرتلا (Sirtella) (وهو الاسم القديم لآل لوح) الساذجة ، لكنها قد فقدت إلى الأبد الاهتمام بالأوضاع الحقيقية وبجمال الجسم البشري الحقيقي .

أما الفترة القصيرة التي اهتمت في أثنائها إلى الامام بالفنّ الآشوري فأنها تبدأ من حكم الملك آشورنازير پال (Assur-nazir-pal) إلى نهاية ملك آشور بانينال (Assur-bani-pal) بما في ذلك كل عهد الدولة السرجونية المجيد . وهكذا تكون مدّة هذه الفترة لا تتجاوز قرنين ونصف قرن ، أي من سنة ٨٨٢ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد .

ومع أنها كانت فترة قصيرة إلا أنها تركت لنا كمية عظيمة من الآثار التي سلّمت من عبث المتقّبين . وهذه التركة الأثرية يصحّ تقسيمها إلى ثلاثة مجاميع بمقتضى ثلاثة أدوار معينة هي بمثابة أجزاء الأطوار الكبرى في التاريخ العام لهذا الفنّ .

وكلّ دور من هذه الأدوار الثلاثة ينطبق من جهة الفنّ على كيفية عمارة قصر ملكي . فعندنا أولاً قصر آشورنازير پال في أطلال غرود ، التي كانت تُسمى ككّاح (Kalah) . ثمّ ثانياً قصر الملك سرجون في اطلال خورساباد التي كان اسمها دور سركين (Dur-Sarkin) ، وثالثاً قصر الملك آشوربانينال في خرائب قويندجيك (نينوى القديمة) .

وهناك قصران ملكيان آخران ، أحدهما كان للملك سنحاريب ^(١) في نينوى ،
والآخر لأشورخدون ^(٢) في كَلَج ، وفي كليهما من الآثار ما يجب أن يُعتَبر بين
الدورين الآخرين المذكورين في الفقرة السابقة ، وذلك مما على هذه الآثار من
التواريخ ومن النقوش والكتابات .

وفي متحف اللوفر عدد وافر من لوحات النقوش والرسوم البارزة التي وُجدت
في كَلَج وفي خورزباد ، وليكنها كآثار آشورية قديمة ليست بنفاسة العاديات المصرية
التي لا يُنافس فرنسا فيها سوى متحف (بولاق) ^(٣) مصر ، بينما نجد أن المتحف البريطاني
في لندن يحتفظ بأعظم العاديات التي جُلبت إليه من بلاد ما بين النهرين .
ويمكن اعتبار آثار قصور نمرود وخورزباد وقويوندجيك كأساسات لثلاثة
مذاهب فنية ، بينها وبين بعضها الفروق الآتية :-

فالمذهب الأول يتميز بالفخامة والمهابة المقرونة بالخشونة والبساطة ، ولا ترى في
رسومه البارزة سوى أشخاص قليلة العدد ، هائلة الحجم . وأرضية الصورة مجردة
من أي نقش ، وصور
المنظر ، حتى إذا
كانت تمثل موقعة
حربية أو حادثة صيد ،
فأنها تكون عليها
دائماً مسحة الهدوء



والسلام والنبالة . وتوجد منها نماذج في المتحف البريطاني .
وهذه الصورة التي يبلغ طولها متران وواحد وثلاثين سنتيمتراً تمثل أسورنازيربال
يقدم قربان خمر (سكية) للآلهة .
وكذلك الواح المرمر فإن لها نفس الارتفاع ، لأن الغرض منها هو تغطية

(١) Sennacherib ابن سرجون ملك آشور . وقد ارتقى عرش الملك في سنة ٧٠٥
وقتل في سنة ٦٨١ قبل الميلاد بيد ولديه (راجع سفر ملوك الثاني الاصحاح ١٩ والعدد ٣٧ ، ونبوثة
أشعيا الاصحاح ٣٧ وعدد ٣٨ . (٢) Assar-Haddon من سنة ٦٩٠ الى ٦٦٧ قبل الميلاد .
(٣) المتحف المصري الآف في شارع مارييت باشا

المساحات ذاتها التي بين « التجليد » الاسود اللون والنفسية التي من الخرف المطبيء بالبناء (التيشاني) الذي ينتهي الى محاذاة السقف . ولكن في خورزباد ، وخاصة في قويوندجيك ، نجد أن اللوحات مقسمة الى عدة سجلات ، والاشكال (الصور) يصغر حجمها شيئاً فشيئاً ، وأرضيتها مثقلة بالرسوم البعيدة عن أصول الفن ، مع محاولة سمجة نحو رسم « المنظور » ، فيرى الناظر خلف صورة الاشخاص اسوار المدن ، واشجار الغابات ، والنهر يسفنه وسمما كيه يشق طريقه بين الحقول .

وكما اقتربنا من الزمن الذي نعيش فيه الآن كلما تراجعت الرسوم وفقدت ما كانت عليه من التناسق والاتقان ، وان كان بعضها لا يزال حافظاً لرونقه . على ان بعض المميزات الخاصة تكفي حتى لنظر قليل الخبرة والرسوم في الفن ان يعترف على الرسوم (البارزة) الاقدم من الرسوم الأجدد . فالرسوم القديمة تمتاز بكثرة الكتابات أو النقوش التي تتوسط « موضوع الصورة » حتى انها أحياناً تحجب جانباً من أشخاصها ، أما الرسوم الأجدد فاننا لا نجد هذه الكتابات أو النقوش ، أو على الاقل لا نجد لها الا في « حقل أو أرضية الصورة »

على ان الحُفَّارين الاشوريين لانهما كهم في تصغير الصور واهتمامهم في الافاضة بالتفاصيل قد اكتسبت أيديهم مهارة غريبة . فنجد ان أوراق الشجر التي في نقوشهم محفورة بدقة متناهية تمكن الناظر اليها من معرفة نوع النبات الذي أخذت صورتها عنه . وهكذا يمكن بكل سهولة تمييز ورق النخيل من ورق اشجار التين أو ورق كرم العنب والعنايد ، حتى المحاليق فانها تظهر واضحة أتم وضوح . وهذه الدقة المتناهية تراها في صور عُدَّة الخيل وتجفافها ، كما تراها في الثياب وغصونها واهدابها ووشيا وتطريزها الذي كان من أحب الاشياء لدى أهالي نينوى المترفين .



نعم ان الفن كان . لسبب ما ، غارقاً في لجة هذه التفاصيل الفنية . ولكن في قويوندجيك ابتعد عن السذاجة الاخاذة التي تراها في تماثيل تل لوح ، أو البساطة النبيلة التي تمتاز بها

النقوش البارزة الكبيرة الحجم في غرود ، حتى أصبح فنّ النحت عبارة عن « صناعة » لا همّ لاربها إلا تكرار تقليد ذات النماذج القديمة تكراراً سخيّاً على الدوام ، غير حافلة بإظهار معالم وجوه الاشخاص عند رسمهم . فكانوا يستعملون النموذج الواحد ، الذي امامهم منذ زمن بعيد ، في تصوير الملوك إسوة بتصوير العبد ، بلا تمييز على الاطلاق ، أو تصوير الجنود وقوَّاد الجيوش على حدّ سوى . وكذلك كانوا يكررون النموذج بعينه لصنع الآلاف من النسخ من الواح النّاء (المرمر) الرخو ، دون اجتهد أو جهد أو عناء في سبيل التحسين أو الابتكار .

حتى في الصُّور المنحوتة التي تُمثّل مجاميع أشخاص ، فإن أمرها انتهى كذلك الى الجمود وعدم التنوع أو التغير . فترى ، مثلاً في كل الرسوم التي تمثل ملوك ذلك العهد ، ذات الملك جالساً على ذات المركبة بذات الوضع ، ونفس سَحْنَة الاعداء الجاثون عند قدمي أحدهم ، هي نفس السَحْنَة التي نجدها في صورة ملك آخر . وكذلك صور الصيد ، وصور تعذيب الاسرى والتشكيل بهم ، وصور الاعداء بعد قهرهم وهم يسرون متحاملون على أنفسهم في صفوف طويلة تحت عُصي حراسهم ، فانها كلها متشابهة كأنها منسوخة عن أصل واحد مُضطَّأَح على استعماله لكل الملوك .

فعمدما يفرغ المعلم من رسم هذه المناظر الرخاميّة المثبتة في الجدران ، يعكف جيش الصنّاع على ملء هذه الاشكال الرموز بها الى الملوك والافراد بالمشاهد التي تَحُلّد لعامة الشعب ، في ردهات القصور الفسيحة ، تفاصيل ذكرى الانتصارات المجيدة ، لتبث فيه روح الزهو الوطني والنعرة القومية ، بينما تُتعب في ذات الوقت عيون الاجانب المتفرجين .

فمن أعظم عيوب فنّ النحت عند الاشوريين اطّراد النّسق المُمل . لأن ذات الموضوع ، والالهام ، والخواطر المألوفة هي التي أجرت إزميل النّحات في الحجر الصّلد ليُثَلّ الملك المنتصر وهو يسحق اعداءه في الحرب ، ويردي الاسود في مطاردات الصيد ، ولا يتسلّى أو يَهْنَأ له بال الا اذا رأى الاسرى تسليخ جلودهم وهم على قيد الحياة ، أو يعانون آلام القتل على أعمدة الخوازيق ، أو أن يتأهّى بَقَعَة عيون اعدائه بأصابعه

ثم ان الحفّار الذي ينصرف الى دراسة هذه النماذج وأمثالها على حيطان القصور ، ثم يارس صنعها مرّات عديدة ، ويرى انه مقضيّ عليه ان لا يُنتج غير هذا مدى كل حياته ، ينتهي به الامر الى السّامة المحزنة التي تسرّب من شخصه الى إنتاجه الفنيّ ، ثم تحتاج شعور الناظر الى هذا الاتاج فيتحول الى اشتزاز بعد الوقوف وقتاً قصيراً امام هذا الجُتّام (السكابوس) الذي يرى فيه كل مظاهر الوحشية التي تلازم الانتصارات الحربية .

وهذا التّهكّم الدموي الذي ظلت نبوى تتردّى في حماته زهاء مايقى سنة نرى رسومه محفورة على الجدران بكل أمانة واخلاص للفنّ الذي كان معروفاً في ذلك العهد ، حتي ان المتأمل في هذه الآثار يرى في نفور العضلات وبروز المفاصل واتساع الخياشيم الدالّ على القسوة ، وتركيز نظرات العيون الواسعة الدال على الشراسة ، مايشعره بأن سيطرة الخواطر المزعجة التي لازمت هذا الشعب ، هي التي أوحّت اليه بأول تخيلات هذا الفن .

فلست تجد في فنهم طابع الرشاقة أو العُسن ، أو التّهكّم والسخرية ، حتى ولا الضحك أو الابتسام . بل ترى في سحنة الاشخاص صورة من وجه حيوان مفترس لا يحرك شففيه إلا لكي يزفجر أو يأنهم فريسة . وملامح الوجه وعضلاته لا تنبسط لحظة بل تظلّ دائماً التقلّص والتوتر تحت البشرة كأنها مشدودة بقلوس^(١) فولاذية . ثم ان الفنّ التّينوي لم يهتم بأن يرى في جسد الانسان إلا اداة أو آلة من آلات الحرب كالمنجنيق (catapult) أو الكبش (bélier) مثلاً ، التي قدّر عليها ألا تعرف التناشق أو اللبونة والرشاقة إلا في التقتيل والتعذيب . أي ان الجسم الأدبيّ الذي خلّق على أجمل صورة وأحسن مثال ، ممّا حدا بالمصريين أن يفتنوا في تصويره عارياً مجرداً من الكساء لكي تتملّى عيونهم بمحاسن تقاسيمه وانسجام أعضائه ؛ هذا الجسم الانساني الذي ألهمه قداماء اليونان لحسنه وجماله ، لم يجزّ الفنّ التّينوي على إظهاره عارياً . ولعلّ سبب ذلك هو ان الرأي الشرقي العتيق ، كالحديث ، يرى في الجسد البشريّ العاريّ عاراً يجب ستره . وقد قال هيرودوتس :-

(١) جمع كلمة قلدس وهو الحبيل الضعيف .

« إن الليديين^(١) كغيرهم من الشعوب المتبربرة ... يعدّون التجرّد من الثياب ،
سواء أكان للرجال أم النساء ، عاراً فاضحاً ،

ولم يقتصر البابليون والاشوريون على عدم الظهور امام الناس عراة ، بل كانوا يرتدون أثواباً طويلة سمكة ، وأردية طويلة تصل الى كعوب أقدامهم ، وشيلاً يلتحفون بها فتخفي قاماتهم ، وقلائس تغطي رؤوسهم وتغطي تحتها جباههم . وكانوا يقدون الساميين في اطلاق لحامهم وعوارضهم لتخفي شفاههم وخصودهم الى الانوف فلا يظهر لها أو لأفواههم أي أثر ، حتي ان شعور رؤوسهم الجعداء كانت تغطي أفتيهم . فكيف كان يتسنّى لغنائي ما بين النهرين أن يعرفوا ويصوّروا مثل هذه الاجسام البشرية التي فاض شعاع جمالها تحت إزميل فيدياس (Phidias) وبراكسيتيل (Praxitèle) المثاليين الاغريقين حتى أبلغوها مرتبة الآلهة ؛ والتي بلغ من أمرها في وادي النيل ان أضافوا الى محاسنها حسناً ورشاقة وسحراً

أما المرأة فلم يخطر للأشوريين أن يظهروها في رسومهم كاسية أوعارية . وما وُجد منها ، وهو في حكم النادر ، قد كان دُمِم الصورة ، أشوه الخِلقة ، مما يبعث على الاعتقاد ان المثال الذي صنعها لم تكن له أية خبرة في صنْع الرسوم أو التماثيل النسائية . ثم ان بعض التماثيل الصغيرة لآلهة الشهوة إistar ، التي لقبوها « بمتعة الرجال والأرباب » ، فينوس الشرق ، لم تُعرف عند العُشور عليها إلا لأنها عارية . ولكن بالساحة ذوق الصانع الذي صنع هذه الدُمى ! وما أوسع الفُرق بين قسَمات جسمها الثقيل البشع وجسم الملكة المصرية البديعة التكوين « طايا » (Taïa) .

وهكذا يكون النقد الذي يمكن توجيهه الى فنّ النحت الاشوري في محله ، ولكن يجب أن يُوجّه الى أخلاق وصفات الجنس الاشوري ، قبلما يُوجّه الى ناحية الفنّ نفسه . ففي كل مرة يتسرّللفن أن يفلت من تلك القيود الأخلاقية التي كانت مضرّبة عليه ، تمكّن من صنع تحف فنيّة في غاية الروعة والجمال . وهذا يسهل ادراكه عندما نتأمّل تماثيل الحيوانات التي صنعها المثّالون الاشوريون فنجد انها أجمل بما لا يُقاس مما صنّع من نوعها في أي مكان .

(١) إبيديا مملكة قديمة في آسيا الصغرى ، تقع بين بحر الإجه وبلاد فريجيا القديمة وبلاد بيزيا ، كانت عاصمتها ساردبس المذكورة في سفر الرؤيا من الانجيل .



حقيقة أن قدماء المصريين كان لهم ولع خاص بتصوير الحيوانات ، وكانت لهم في ذلك شهرة طارئة ، ولكنهم كانوا يكتفون بتصوير خيالها (صورة الخيال الاسود للشيء) مع تنوع كثير في أوضاعها . على أنهم لم يعرفوا كيف يقتنوا رسم الخيول ، لأنهم لم يعرفوها إلا في العهد الأخير الذي وقف عنده الفن عن النمو والتقدم مكتفياً بالنقل عن النماذج القديمة (الكلاسيكية) .

وبعكس ذلك كانت الحال في ما بين النهرين ، فان رسوم الحيوانات هناك ، سواء أكانت بارزة أو مقببة ، فانها لاتقاهن البديع تكاد تكون ناطقة . بينما نرى كل الصور البشرية متشابهة تمام المشابهة كأنها مصبوبة في قالب واحد ، لا فرق فيها بين إنسان وإنسان . حتى ان الصورة المعزوة الى الملك آشوربانيبال نجدها تنطبق تمام الانطباق على صورة الجالس إلى جانبه ماسكاً زمام خيل المركبة فاعتبرناه سائق مركبته ؛ في حين ان صورة كل جواد من جياد المركبة تختلف كل الاختلاف بعضها عن بعض .

ولم يكن عند المثلين الاشوريين أسدان ممثالان في زئيرهما ، ولا كلبان يطاردان طريدتهما أو بهاجتهما على وتيرة واحدة ، ولا حيوانان جريحان يحتضران وهما في وضع ممثال ، كما في تمثال « البؤة الجريحة » الشهير ، الموجود في المتحف البريطاني ، وبعد من أفضل تحف فن نحت التماثيل في كل العصور . ففي هذا التمثال النادر ترى كيف ان كبوة بديةة التكوين ، وقد نشب سهم الصياد في سلسلة ظهرها الفقرية ، أخذت من « حلاوة الروح » تتحامل على نفسها لتجرح نصفها الخلفي الذي شل ، فاعرة فيها زرعق متأوهة من شدة الألم ، فتشعر وأنت تتأمل فيها كأن زئيرها يرن في أذنك . وفي تمثال آخر ترى أسداً آله سهم ناشب في جسده فاتقص على احدى عجال (دواليب) المركبة التي انطلق منها السهم ينهشها تشفياً من غيظه . وفي تمثال ثالث ترى أسداً إرتز السهم في كفه فأخذ يدور بحركة جنونية مأوها الغيظ والعجز . ويستطيع الكاتب أن يملأ مجلداً ضخماً بالكلام على كلاب الصيد البدية ، أو الثيران والأبقار والغزلان ، والحيوانات الغريبة كالإبل الهجان ، والافعال ، والقرود ، والنعام التي خلد صورها لإزيميل المثل الاشوري بكل دقة واتقان .

وهذا الازميل قد ترك لنا أيضاً صوراً للخيل في غاية الجمال ؛ ولكن أحسنها



وأبدعها صورة ما كان منها طليقاً في حركته ، كما لو كانت تستقي من
النهر أو كانت تستريح في المراعي أو أبدت في الاحراش والبرج ؛
بخلاف ما إذا كانت مشدودة بعذتها الفاخرة الى مركبات الحرب .
ففي هذه الحالة الأخيرة نرى ان العُرف قد تدخل بين الازميل والفتن ،
فأصاب صور الخيل ما أصاب صور البشر قبلها من الزمام نموذج مطرّد النسق .

وهكذا نجد ان الفئان الاشوري عندما سمحت له الفرصة بالفوز بصورة حيّة ،
كما فاز بصور الحيوانات الطليقة أو الآبدية في البرية ، أو بالحري عندما كان يجد
نفسه غير محصور في دائرة حدود موضوع ضيق ، أو غير مقيد بقيود التقاليد المرعية
الملازمة لهذا الموضوع ، أو بعيداً عن أجساد محتجة بما يثقل عليها من أكوام الثياب ،
فانه تمكن من أن يتحفنا بما يضارع الخنم وأجل ما انتجه فنّ النحت عند كل
شعوب العالم .

وسنحاول فيما يلي أن نبين كيف ان فنّ النحت في ما بين النهرين قد أنجب
فنيّ الاغريق وروما . فتمثال « مينرفا » صنّع فيدياس ^(١) (Minerve de Phidias)
او تمثال « فينوس » ميلو ^(٢) (Venus de Milo) ، وتمثال « جوبيتر » الاولمبي ^(٣)
(Jupiter d'Olympie) ، وتمثال « أبولو » الديلفيدي ^(٤) (Apollon du Belvédère)
ما هم في الواقع إلا الأولاد الشرعيين لتلك التماثيل السمجة التي وجدت في « تلّ لوح »
مركّزة على قواعدها بلا ذوق . وسوف نوضح بيان هذه النبوة بالتفصيل في موضعه .

(١) الالهة الحكمة والفنون عند الاغريق — وفيدياس اسم تمثال اغريقي من سنة ٥٠٠
الى ٤٣١ ق م (٢) رتبة المشق والجمال عند الاغريق — وميلو اسم جزيرة في بحر
ايجه حيث وُجد تمثال فينوس في سنة ١٨٢٠ (٣) إلهة الآلهة عند الاغريق والرومان والادوب
اسم جبل مقدس عندهم ، وهذا التمثال كان يُسعد من بحاث الدنيا السبع . (٤) إلهة الجمال
والرجولة والنوسقي — وبغير اسم متحف كان في القاتينكان بروما . وهذا التمثال يُسعد الخنم
تماثيل روما .

وحسبنا الآن أن نكتفي بما ذكرناه للدلالة على أن الفن الاشوري لم تنقصه الكفاءة بل كانت تعوزه الفرصة للهوض والسير في طريق السكال .

ولو نظرنا إلى هذا الفن كما هو ، بعين الاخلاص ، وجدناه من كل ما اكتشفه من عراقل التقاليد الرسمية المرعية ، لوجدنا أنه كان فناً واقعياً (Realiste) ، بعيداً عن وحي الخيال . نعم ان الاشوريين كانوا يصورون في بعض الاحيان معبوداتهم في



أشكال خيالية نصفها بشري والنصف الآخر حيواني ، كما فعل المصريون ، ومع أن ذلك كان عَرَضاً ، ولكنهم كانوا فيه من المجدين . وإلى هذه الطبقة من فنانيهم ينسب فضل صنع الثيران ذوو الرؤوس الآدمية ، وكذلك « كرويم » ^(١) الاسرائيليين الذي ذاع اتخاذاها كمنادج فنية في كل انحاء آسيا القديمة خصوصاً في بلاد الفرس وهذه الهول ^(٢) الهيبية التي يبرز مقدمها من الجدران كأنه خارج منها ، نرى مؤخرها يتضاءل وبتفرطح حتى يستوى وجدران البناء ؛ هذه الهول كانت تستعمل لزينة مداخل القصور بينما كانوا يعتقدون أنها لحراسها

ثم ان صنع هذه التماثيل بأجسام عظيمة القوة ، واجنحة منبسطة ، وسيقان رشيقة كأنها تتحرك متقدمة الى الامام ، ورؤوس شاحخة جليلة ، ووجوه عليها سيممة البشاشة والطلاقة والرزانة ، هو ما جعل للفن الاشوري المادى العنيف شيئاً من الخيالية .

وهذه التماثيل الضخمة التي تلقى المهابة والوقار في روع الناظر اليها ، قلما ، وان كانت تماثيل تماثيل أبي الهول المصرية الرابضة عند ضفاف النيل شكلا ، الا أنها لا تحاكي سكونها الساهر .

فالثيران الاشورية تخطو الى الامام كأنها قادمة لتدفع كل من يجترى على أن

(١) المراد كروب ، وقد ورد ذكره في التوراة في جملة مواضع ، منها في سفر التكوين الأصحاح ٣ وعدد ٢٤ ، وسفر الخروج ٢٥ - ١٨ ، وفي حزقيال ٤١ من عدد ١٨ - ٤٤ . وفي كرويم ونجل . نخلة بين كروب وكروب ، والسكل كروب . وجمان : وفي عدد ١٩ د فوج الانسان نحو نخلة من هنا ووجه التنبيل نحو نخلة من هناك « الخ (٢) جمع هولة ، وهي التي السكرة المنظر يفرزع الانسان

يهدد مسكن الملك ؛ بينما ترى تماثيل ابني الهول وكأنها لا تفكر في الملوك ولا في الناس ، بل ترتزو الى الصحراء ورمالها كأنها تسبح في خيال حلم للذيد .

ويمكن معارضة (مقارنة) الفن الاشوري بالفن المصري في اشكال الحيوانات ، وكذلك في الاصنام الضخمة الهائلة الحجم ، أما فيما عدا ذلك من حيث الاتاج الفني فان الآثار الاشورية لا تُعد شيئاً بالنسبة الى ما وجدناه من الآثار المصرية .

ثم ان وحي الحواطر لم يكن واحداً على شاطئ النيل وضياف دجلة والفرات . فالفن المصري كان سامياً خليقاً بتمثل الحياة المقبلة ، واعمال الآلهة المجيدة ، وجلال الملوك أبناء الشمس ، حتى إذ تناول ألوف المهن والاعمال المألوفة التي أجاد تصويرها أفاض عليها جمالاً سحرياً خلاّباً .

وكأنني بهذا الفن الساحر قد أحسّ بسمو منزلته عمّا في هذا العالم فاخفى اجمل ما انتج من الآثار في ظلام القبور الابدي لتفتن به عيون الموميات (الاجسام المحنطة على طريقة قدماء المصريين) المصرية الجامدة .

أما في آشور فان النحات لم ينشغل عقله بما وراء هذه الحياة الدنيا . لأن حُشونة حياته الحربية ، وحُب الغزو والفتح بلا رحمة أو هوادة ، لم يتركها في نفسه فراغاً لمثل أحلام وأوهام الابدية . نعم ان كبرياء الملوك التي لاحدًا لمطالبها كانت المثال الاعلى الوحيد الذي كان النحات الاشوري يشتغل في سبيل مداجمتها . أمّا جمال الهيئة ، ودقة الملامح ولطافة الاوضاع والخطوط التي شغفت المثال المصري فانها لم يُعزها زميله الحورزبادي أو النثوي أقل اهتمام .

ولذات السبب لم يكن الفنان الاشوري يهتم باتقان الشبّ الذي كان يتوخاه مثّالو « الدولة القديمة » بدافع شدة تعلّمهم بمعتقداتهم الدينية ، فان ما انتعره من العطف والانجذاب نحو تماثيل الكتّاب المصري ، أو الامير « رع هوتب » ، ولاسيما نحو الملكة « طايا » الرائعة الجمال ، لا يمكن أن نحس بما يضارعه عندما ننظر الى الصور الاشورية البارزة ، ذات السيقان المضطّعة ، أو العضلات ذوات الرأسين (في الكتف والفخذ) الضخمة النافرة ، أو الحياشيم الواسعة للانوف المعقوفة التي تمّ صورها الجانبية (Profil) ، المتشابهة كلها ، عن غباوة وحشية وقسوة عُشومة .

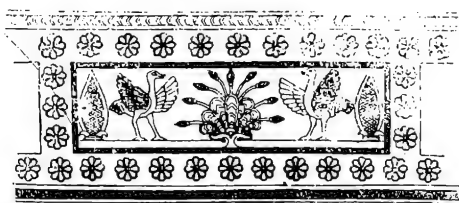
وكما مررت بالقاعة الاشورية من متحف اللوفر (الفرنسي) ، وتأملت ما فيها من عجيب الآثار ، مرّاً بخاطري ما كان عليه الناس في عهد الرغب الذي تفشّى فيه ظلام الجهل الرهيب والاحلام المزعجة ، أي العهد الديموي الذي ساد الشّرقَ عندما كانت السيادة والسلطان لهؤلاء السامين السّفاحين .

ولكيّ أزيل عن نفسي ما تركته عليها هذه الخواطر المؤلمة أخرج من هناك الى الممرّ ذو السقف المعقود الموصّل الى جناح الآثار المصرية حيث استمتع برأى تماثيل الآلهة وإبي الهول والفراعنة ، حتى تتأل السكائب المتواضع ، وهي ترمقني بنظراتها العميقة العذبة التي تدلّ على منتهى الرقة والذكاء ، وكأنّها تشاركني نفس أحلامي رغم الأزمنة البعيدة التي تفصل بين عصرينا .

٢ - التصوير الملون والقيشاني

كان الشرق على الدوام مشغولاً بالالوان الزاهية الثابتة ، وقد عرّف منذ أقدم الازمان كيف يصنعها .

وعندما تكلمنا على مصر ^(١) أفصّنا في بيان سبب هذا الذوق الذي منشأه الحاجة الى اتقاء تأثير ضوء الشمس الشديد ، ولكي تكون الالوان وسيلة الى إظهار النقوش البارزة ، والابنية التي لو تركت بيضاء لاختلطت بما يكتنفها من الضياء واختفت فيه .



على اننا ندفع الآن
أعلى الأثمان لاقتناء
الابسة الشرقية الفاخرة،
والطنافس النفيسة ذات
الالوان الثابتة ، التي يعود

(١) في الجزء المختص «بمصر» الذي نشرته المطبعة المصرية باسم « حضارة مصر القديمة »

سيرة تركيبتها الى قدماء الكلدانيين ، لان سكان بابل وأشور كانوا يفتنون بكل ما هو زاه باهر جذاب من الالوان ، حتى انهم كانوا يطلون بها جدران بيوتهم كلها ، وكذلك قصورهم ومعابدهم . وما كانت الزخارف التي على جدران « إكبتان »^(١) إلا أثرًا من ولعهم الشديد بالالوان .
ومع ذلك فان تعدد الالوان كان يستعمل في الرسوم البارزة في ما بين النهرين بأكثر تحفظ مما في مصر .

وفي وادي النيل كانت الصور المنحوتة على الجدران تغطي كلها بالالوان . بخلاف الحال في بابل ونيوى ، حيث كانوا يستعملون باستعمال الالوان في إيضاح بعض التفاصيل مثل لون اللحية والشعر والعيون أو احتفائها ، والقلائص والاحذية ، واهداب الملابس ، والاسلحة ، وعُدّة الخيل

ولقد سبق لنا القول ان آشور هي التي علّمت الاغريق ، ولذلك أخذوا عنها هذه الطريقة الفنية ، كما أخذوا عنها دروساً أخرى .

وقد تردد المختصون زمنا طويلا قبل البت في موضوع تعدد الالوان عند الاشوريين . فهل كان ذلك عامًا عندهم كما كان عند المصريين ، أم كان محدودا كما كان يفعل الاغريق من بعدهم .

أما الآن فانه لم يبق للتردد مكان بعد ما ظهر من الأدلة القاطعة ؛ منها ، ان أثر الالوان الذي تمكنا من اكتشافه يدل على ان الالوان لم تستعمل عند الاشوريين الا في إيضاح بعض تفاصيل معينة ومتشابهة في كل التماثيل المنحوتة ، وانما لم تستعمل قط في سطوح واسعة كقواعد التماثيل ، أو في تصوير الاجسام العارية ، أو أقمشة الملابس . وكذلك لاسبيل للظن ان اثرها قد اتمحى وانطمس من واضع معينة متماثلة في كل الحالات ، مع بقائه وثباته في اماكن أخرى متشابهة .

واذا كان الزمن هو العامل الاول في مخو أو طمس هذه الالوان ، فقد كان من المحتمّ ثباتها وبقاؤها في الاجزاء المنخفضة ، وزوالها من الاجزاء النافرة في النقوش

(١) اسم قديم لماصدة مادي القديمة ، وفي مكانها الآن مدينة حدان في بلاد الفرس .

البارزة ذاتها . ولكن الواقع غالباً يكون على عكس ذلك . فحداقات عيمون الثيران المستديرة البارزة كثيراً ما نجدها باقية ملوثة ، بينما نجد ان الفُلول (الحُفَر أو الحُرُوز) الغائرة التي تُمثل تجعّدات الشَّعر لم يظهر عليها أي أثر للالوان .

وهذه الملاحظات الدقيقة كان لها أثرها الواضح عندما نبشوا النقوش البارزة ، وكانت محتفظة بروقتها وألوانها . وقبلما تعرّضت للهواء الجوّي ، اذ كان الفرق أوضح بكثير مما هو الآن بين الاجزاء الملوّنة وغير الملوّنة

وعلاوة على ذلك فاننا نجد ان تعدّد الالوان لم يكن مُستعملاً في بابل واشور الا في صنع التماثيل ، وبغاية التحفّظ كما سبق القول . والمواضع التي ليس عليها نقوش بارزة من الجدران ، كانت تُطلى بألوان إما بالطريقة المعروفة عند النُقّاشين باسم « فرسكو » ^(١) أم تُعشّي بقوالب أو مربعات الطوب المطوّق بالطين بألوانها البرّاقة .

والى الآن لم يُعرف على وجه التحقيق ما اذا كان الاشوريون قد توصّلوا الى معرفة دهن الحيطان بالطلاء المائي (détrempe) الذي يُطلق عليه اسم « فرسكو » أيضاً . ولكن المحقّق انهم استعملوا طبقات من الطلاء ^(٢) على بناء الجدران مباشرة . وفي قصورهم كان نظام تغطية الحُجَر من الداخل على هذا الاسلوب مبتدئاً من أسفل الى أعلى : - سفّل يكون على الاغلب ملوّناً بلون أسود ، ويليه الى فوق ، وبارتفاع عظيم . حقل الحائط ، ويكون عادة من النقوش البارزة ، ويلى ذلك شريط (إزار) عريض من مربعات القيشاني يتصل بالسقف .

وعندما كان الاشوريون يصورون على الحيطان أشخاصاً ، فانهم كانوا دائماً يجمعون حدود الشكل مثل حدود نقوشهم البارزة ؛ أما التلوين فانه لم يتألف ، كما في مصر ، الا من لون واحد مُضَمّت . بلا ظل ، أو تدرّج لوني ، بقصد التزيين أو الزخرفة .

أما التصوير بالألوان بالمعنى الحقيقي المعروف الآن فانه لم يكن كفنّ مستعمل ، لا في بابل ولا في نينوى ولا في وادي النيل أيضاً ؛ ولكن فناً آخر بديعاً حلّ مكانه ،

(١) طريقة دهْن الحيطان بالوان مَدّابة في الماء مع قليل من التيراء ، ويُطلق عليها في مصر « التلوين بالفرشة » . (٢) يُعرف في مصر « بالبياض »

وهذا الفن هو المختص بصنع مربعات القيشاني (أو الطوب الخزفي)، فان السائح لا يخطو خطوة في ارض ما بين النهرين حتى يجد شَقَقَهَا^(١)

وكانت هذه المربعات القيشانية تُستعمل بكثرة في تسمية «وَرَرَات» الحيطان بأكلها . فكانت ألوانها الزاهية الخلابة تمتزج بعضها ببعض امتزاجاً لطيفاً هادئاً منسجماً يدلّ على ذوق سليم ناضج لم يفقه قط ذوق آخر ، لتعطي رسوماً ساحرة . فلا بدّ ان هذا القيشاني كانت تألف منه ألحُم الخزاف الممارية التي تألفت في ضوء شمس الشرق الساطع .



وهكذا كان جمال هذا الطراز من الزخرفة الاشورية حتى ان كل الأمم التي تعاقبت على ارض ما بين النهرين ، من الفرس الى المغول ، قد اهتموا بتقليده ، فصار لابل وأشور تلاميذ عادلوا اساتذتهم في الماهرة والالتقان ولكنهم لم يفوقوهم . وكان الاشوريون يصنعون هذا القيشاني (الطوب الخزفي) بمجرده أولاً في نار هادئة ، ثم يطلونه باللون والرسوم الجميلة ، ويعشقون ذلك بطبقة زجاجية ويعيدونه الى النار مرة ثانية .

وكانت الألوان التي يستعملونها مستخرجة من أكاسيد (جمع كلمة أكسيد العليّة) معدنية ، ولكنها لم تكن زاهية كاللوان النقوش البارزة التي وجدت على النقوش البارزة ، كالأزرق الزعفراني ، والأخضر الزيتي (الزيتوني) ، والاصفر الفاقع ؛ والابيض كان هو اللون السائد . أما الاسود فكان نادراً ، واندر منه اللون الاحمر في القيشاني ، مع انه كان كثير الاستعمال في المنحوتات .

والزنجفر (سلاقون أو أكسيد الرصاص الاحمر) الذي كان يستعمله الاشوريون كان يتحول لونه الى اصفر تحت تأثير الحرارة الشديدة ، وهكذا كان اللون الاحمر يختفي بعد الشيّة الثانية .

أما الرسوم التي كانوا يستعملونها في زخرفة القيشاني فانها متنوعة جداً ، وليس لها مثل من حيث الروق والصقل والالتقان . على ان صور الأشخاص والحيوانات لم تحلّ

(١) كِسَرُ الحرف ، والواحدة شَقَقَهَا .

من محاسن وعيوب النقوش البارزة. وقد كان الاشوريون بارعين في اختيار النماذج التي يقتبسون عنها حلياتهم. وقد توفّقوا في مزج الأشكال الهندسية المخفضة ، كالشكل المثلث (سنبوسكة) ، والمربع ، والنجمي ، والوردي ؛ مع مواضع مأخوذة عن المملكة النباتية ، كالزهور ، والبراعم (أزهار) ، وزهرة اللؤلؤ (مرغريت) المتفتحة ، والنصوص الأثنية ، والعناقيد الظرفية . وقد استعانوا أيضاً على هذه الحليات باستعمال مجموعات متوائمة من حروف كتابتهم المسمارية (أو الاسفينية) ، حتى أن العرب من بعدهم قد توسّعوا في تنويع هذه الحليات فاستمدّوا من طرق تشابك وتمييز حروفهم الكتابية الجميلة نماذج أولية لركشة ما صنعه من الزخارف الخزفية.

وكثيراً ما كان الاشوريون يصنعون لوحة مؤلفة من عدة مربعات خزفية فيها مشهد أو صورة فنية واحدة . ففي هذه الحالة لا بُدّ وانهم كانوا يصوّرون ، ثم يلوّنون كل المشهد على عدد من اللوحات القرميدية المتجاورة الوضع ، ثم يحرقون هذه اللوحات متفرقة ، وبعد إخراجها من الأفران (القماين) يُعاد توظيفها كما نفعل نحن عندما ننتهي بقطع الوقت في لعبة « الصبر » (Patience) بورق اللعب.

ولا حاجة بنا الى محاولة الثناء على مهارة وسلامة ذوق الاشوريين في هذا النوع من الزخرف المعماري ، لأن ذلك يفوق كل مدح وإطئاب .

ويكفي أن نذكر فضلهم على العالم بانتشار هذا الفن في كل بلاد الشرق ، من شمال افريقيا الى ضفاف نهر الكنجغ (1) (Gange) حتى شواطئ المحيط الاطلنطي (بحر الظلمات) ، حيث نجد هذه التحف التي مازالت ماثلة تسحر عقول السباح الغربيين وتبهير عيونهم .



(١) نهر هندستان ، طوله ٣١٠٠ كيلو متراً . ينبع من جبال هملايا ويصب في خليج بنغال .

٣ - الفنون الصناعية

رأينا في الاسطر السابقة كيف ان صناعة الآجر المغشّى بالمينا ، الذي قوام صنعه الصلصال (طين الفخار) ، كانت مزدهرة وناجحة في ما بين النهرين . فهذه المادة الأولية الكثيرة الانتشار على ضفاف الفرات والدرجلة ، وفي السهول والمستنقعات الواسعة في تلك الجهات ، لعبت دوراً هاماً باستعمالها في عدد وافر من الصناعات وذلك لسهولة الحصول عليها ، ولأنها كانت في متناول الجميع .



فهذا الصلصال انتفعوا به في صنْع اللَّبْن (الطوب الاخضر) والآجر (الطوب المشوي) اللذين كانا وحدهما عماد المُنشآت الأثرية ، وكذلك في صنْع الخزف والقيشاني الذي استعمل لخرقة هذه الابنية وغيرها . ثم انهم جلبوا منه لوحات رقيقة قامت مقام الورق حتى امتلأت بها ما أسموها دور الطالعة (مكتبات) ، وكذلك قسوه (حجروه) وصنعوا منه أوان زينية هائلة الحجم ، ونواويس لدفن موتاهم .

ومع كل ما مارسه الاشوريون وما نالوه من الرواج والفائدة من المصنوعات المرتبطة بالصلصال فانهم لم يصلوا بهذه الصناعة الى ما يقرب من حدود الكمال .

وقد كانوا يعرفون « المخرطة » ^(١) . وصنعوا عددا عظيماً من الاشياء الفخارية كما يتضح لنا من الكليات التي وصلت الينا ، ولكن قل أن يكون لهذه الاواني شكل فني منسجم يدل على مهارة خاصة أو ذوق ممتاز . والنموذج الوحيد الذي لقينا كثيراً منه هو الجرار البيضية الشكل المدببة القاع كانها كانت تصنع كذلك لغرضها في الرمل ، أو لوضعها فوق حايل ^(٢) حتى ترتكز .

(١) آلة حَـرَـط الخشب أو المادان وغيرها . (٢) ولعلها تصد أنها بشكل ما يسمونه في مصر « زلّامة » أو « زبّير » الذي يوضع عادة على « سحالة » .

وكذلك المصنوعات الزجاجية فانها لم تنل عناية اكثر من الفخارية ، ولذا لم تكن انيقة الشكل والمظهر ، مع ان مادة الزجاج عُرِفَتْ مُنْذُ أقدم الازمان في ما بين النهرين . وفي نمرود (Nimroud) عثر المتقبون على إثناء زجاجي عليه اسم سرجون^(١) (Sargon) وهو أقدم ما في متاحفنا من هذا النوع .

وكانت أقداح شُرب الاشوريين وآنياتهم الزجاجية ذات الوان مُزْمَنَّة^(٢) (irisation) زاهية بهرت عيون السَّيَّاح لاول وهلة حتى جعلتهم يضارعونها بمصنوعات مدينة البندقية (Venise) . ولكن سرعان ما اتضح لهم ان هذه الالوان المتألقة هي نتيجة عمَل الوقت والطبيعة ، وانها لم تكن في هذه الآنية عند خروجها من يد صانعها الساذج في قديم الزمان .

أما أنسجة الاشوريين والبابليين فلم نعتز الى الآن على أثر يهدينا الى شيء من صناعاتها . ولكن اذا أمعنا النظر في رسومهم البارزة أمكننا أن نعرف شيئاً عنها من الزركشة الظاهرة على ملبوساتهم في هذه النقوش .

على ان المؤرخين الاغريق والعبرانيين قد حدَّثونا بما فيه الكفاية عن شهرة الطنافس والبسط والافقة التي كانت تُصنع في أرض ما بين النهرين . وكذلك ورد في التوراة^(٣) ان رجلاً اسمه عَخَّان « تعدى عهد الرب » الذي كان يقضي بحرق كل الاسلاب والغنائم عند سقوط مدينة أريحا (فلسطين) ، إذ رأى في الغنيمة رداء شعاريّاً (بابلياً) نفيساً ، ومئتي شاقل فضة ، ولسان ذهب وزنة خمسون شاقلاً ، فاشتأها وأخذها لنفسه ، وكان ذلك سبباً في اعدامه وكل أهل بيته ، إلخ .

وقياساً على صناعة القيشاني يمكننا القول بان صناعة النسيج ، لم تمنح قط من هذه البلاد حيث كانت رائجة وزاهرة . فاننا نجد ان الصبَّانين والحاكّة (جمع حائك) الكلدانيين قد أعقبوا تلامذة مازالوا الى الآن بين الصُّنَّاع الذين يتحفوتنا بالابسطة الشرقية الفاخرة .

(١) الاصطادي (٢) تلوّن بالوان قوس قزح .

(٣) في سفر يشوع ، الاصباح السابع والعدد المنبرون وما بعده .

وخلاصة القول ان كل الفنون الصناعية قد بلغت في بابل ونيوى شأنًا عظيمًا .
فالجلي والثياب والأسلحة والمفروشات نرى من صورها المحفورة انها قد بلغت من
النفاذة ودقة الصنع مكانة لم يبلغها شعب من شعوب زمانهم .

وحق الآن نجد ان تطريز وزر كشة الثياب، والمعاطف والملاحف التى يستعملها
الملوك ما خرجت عن كونها صورة طبق الاصل المأخوذ عن نقوشهم البارزة . وكذلك
مقابض السيوف فانها على شكل أسود غاضبة ، وظهور المقاعد مستندة الى صفوف
من الاسرى محفورة فى الحشب أو العاج . وكذلك كثير من الاشياء الشائعة الاستعمال ،
كالكلامط مثلًا ، فانها مزخرفة بأشكال اشخاص محفورة عليها .

ولم يوجد فى هذه البلاد ، البذاخة ^(١) بثروتها الواسعة ، شي بسيط أو ساذج ،
حتى أصبحت مضرب الامثال فى الترفة ^(٢) . وعلاوة على ما كانت تُنتجه مصانعهم
من كل هذه الاشياء لارضاء مطالب أهالى البلاد التى لاحدها ، فانها كانت تستغل
لتنسج طلبات الاسواق الخارجية التى كانت تتمون من مصانع كلدة واشور الشهيرة .
وكذلك يصح أن نتخيل وراء رخاء ونعومة عيش بابل ، وخلف خشونة ونشاط
نيوى الحربي ، طائفة سكت التاريخ القديم عنها لقلة ضوضاء أفرادها مع كثرة عددهم ،
ألا وهى طائفة الصناع التى ضربت بسهم وافر فى سير موكب الحضارة .

وبما انه يستحيل علينا الاسترسال فى الكلام على جميع الحرف التى ازدهرت
فى ما بين النهرين ، فاننا سنحاول الاقتصار على أهمها مما له اتصال بالفنون ، وهو صوغ
المعادن ، والحفر على الحجارة الكريمة (glyptique) .

ومن خصوص استخراج وشغل المعادن ، نعلم ان الاشوريين ، أو بالحري قدماء
الكلدانين ، قد سبقوا كل قدماء الشعوب ، ولم يلحقهم الا الامم الحديثة . وفى الواقع
نجد انهم قد عرفوا أهم المعادن إطلاقًا ، وهو الحديد . وكذلك عرفوا طريقة
صنع الفولاذ .

وقد عزا بعض المؤرخين سيطرة نيوى الساحقة على آسيا ، وطول أمدها ، الى

(١) متكبيرة (٢) النعمة ورغد العيش

امتلاكهم ناصية الحديد والاهتداء الى سِرِّ صُنْعِ الفولاذ . ولكن مثل هذا التسلُّط لا يُدَّعى وأن يكون له غير واحد من الاسباب ، ومن المحقِّق هو ان ما ذكرناه يجب ان يُعَدَّ من أهمها . وقد عثروا في مستودعات قصر خورزباد على كمية هائلة من الادوات الحديدية من كل نوع . بعضها من الحديد فقط ، والبعض من الحديد المُسَمَّى حدة بالفولاذ ؛ منها كَلالِب ، وسلاسل ، ومطارق ، وسِكِّك محاريث ، ومعاول ، وفؤوس ، وما الى ذلك .

أما نينوى فلم تكن لها الاسبقية في استعمال المعدن الثمين (الذهب) بل سبقها اليه بابل كما سبقها في أشياء أخرى عديدة . وقد وجدوا في أقدم مقابر بابل أشياء كثيرة مصنوعة من البرنز ، ومن الحديد ، ومن الذهب ، مما يُثبِت بأقوى برهان ان صناعة التعدين (استخراج المعادن) كانت متقدمة عند قدماء السكديانيين .

ثم ان وجود الفأس والمنجل أحياناً من المعدن ^(١) وأحياناً من الصوان (الظُرَّان) يدلنا على ان ذلك كان فاتحة عهد الحديد والبرنز في مطاوى الطور الظُرَّاني وكان سكان ما بين النهرين يستنبطون أكثر معادنهم من المناطق الجبلية المحيطة بخوضي الفرات والدرجلة . ويظهر انهم لم يوقفوا الى استخراج كفايتهم من الذهب ، فكأنوا يستوردونه من خارج بلادهم ، أي من الهند أو من مصر أو غيرها . أما القصدير فان العلماء لم يتمكنوا من معرفة مصدره على وجه التحقيق ، لانهم لم يجدوا مناجمه في كل آسيا ، فرجحوا انه كان يصلهم بوساطة الفينيقيين ، لان السكديانيين استعملوه في صنع نوع فاخر من البرنز .

ويرجع تاريخ التحف الاثرية الفنية المصنوعة من البرونز كاللُصِي ^(٢) والمزهريات والقوش البرنزية البارزة الى أقدم العصور التي عُرفت في تاريخ الحضارة السكديانية . ولقد مَهَر البابليون والاشوريون في عمل الرسوم البارزة بالطَّرْق أو الضغط . فنجد أبواب قصورهم ومدنهم مكسوة بصفايح من البرونز عليها رسوم بارزة بالضغط مُتَقَنَة الصنع .

(١) الله يقصد الحديد . (٢) جمع دُمِيَّة وهي التمثال الصغير .

أما الحلي فقد كانت كثيرة الاستعمال في أرض ما بين النهرين . وكان الرجال كالنساء يُشَفُّون آذانهم بالاقراط ، ويتقلَّدون القلائد في اعناقهم ، ويزينون معاصيمهم بالأساور ، وسواعدهم بالدمالج ، وأصابهم بالخواتم وكانوا يصيغون حلبيهم من الحديد عندما كان عزيز الوجود يتنافسون باقتنائه ، ثم استبدلوا به البرونز . أما الحلي المصنوعة من الذهب والفضة فكانت نادرة جداً ، ولكن المصنوع منهما كان بالغاً حد الاتقان والحُسن .

أما صناعة الحفر على الاحجار الكريمة فجديرة بأن نخصص لها عدة صفحات ، لأنها من الصناعات التي يسهل تتبع خطوات تطوُّرها من بدء الحصا المنحوتة بسماجة الى الاسطوانات العتيقة الغخمة . وتاريخ هذا التحوُّل يلقي ضوءاً على فن صنع التماثيل الذي يواكبه على قدم المساواة دون أن يترك بينهما فراغاً . وقد وصل البناء من هذه الاحجار البالية والاشبورية المحفورة عدة آلاف مختلفة النوع والتاريخ والصنوع . وقد سبق أن نوَّهنا الى الاهمية القانونية للاختام في أرض ما بين النهرين ، والى ان بصماتها على الواح الآجر وهو لَبِنٌ كانت بمثابة التواقيع (الامضاءات) ، وان كل فرد من أهل البلاد كان واجباً عليه أن يحمل معه دائماً واحداً منها ، على رواية هيرودوتس . وانه كان يستثنى منهم الفقراء المعدمين الذين كان يُكْتَفَى ببصمة (علامة أو طابع) أظافهم ، كالأُميين بيننا الذين يضعون علامة صليب عند عجزهم عن كتابة أسمائهم

وهذه الاختام التي كان يجب أن تكون كثرتها متناسبة مع عدد سكان البلاد حتى تكفيهم ، كانت تجدد في ظروف خاصة . فعندما كان الملك يضع الحجر الاساسى لبناء قصر أو معبد أو باب مدينة ، فان أفراد الشعب كانت تهرع الى مكان الاحتفال لتلقى باختماما في حفائر هذا الاساس ، ثم يعودون فيشترون بدلاً منها . ولعل هذا هو سرُّ عبورنا على العدد الذي لا يُحصى من هذه الاختام في أساسات تلك الاطلال وفي طبقات الجدران . وانا ترجِّح ان السبب في بقاء اكثر هذه الاختام سليماً هو لانها كانت تفرز في الصلصال (طين البناء) وهو لبِنٌ قبلما يصفَّون عليه حجارة الاساس الكبيرة .

ونادراً ما نجد هذه الأختام مسطحة كالأختام التي نستعملها في أعمالنا الكتابية الآن ، لأن شكل أغلبها كان اسطوانياً مثقوباً من القلب . وعلى ظهر الاسطوانة الكتابة والتقوش التي يُطبع عنها ، وفي الثقب الذي في قلب الاسطوانة يَمُرُّ محور تدور عليه الاسطوانة ، فلا بُدَّ أنهم كانوا يمررون هذه الاسطوانة بوساطة المحور الذي تدور عليه (كما فعل نحن الآن عندما نريد الاعلان على أرض الطرق ^(١)) على الصلصال الطري أو الطوب النيء لتترك عليه رسم ما هو محفور عليها ، سواء أ كان كتابة أو نقشاً . وإلى الآن عندما يُراد قراءة أو درس ما على هذه الاسطوانات فانهم يبررونها بهذه السكيفة على سطح منبسط لين ، من معجون الجبس الناعم ، لتطبع عليه بشكل بارز صورة ما حفر عليها غاطساً .

وقد اقتضت صناعة حفر أحجار الأختام في ما بين النهرين على النوع الغاطس منها ، ولم يصنعوا النوع البارز (Camée) لأنه لم يكن لازماً للقرص الذي كانوا يستعملون فيه الأختام على ما يظهر .

ولا يمكن إلا أن تكون كل هذه الأختام (الاسطوانات) التي عثرنا عليها ذات قيمة فنية متساوية تقريباً ، لأننا اذا استثنينا ما صنعوه منها بعناية فنية خاصة لأجل الأغنياء والموسرين ، فإن ما كانوا يصنعونه منها لعامة الشعب كان يُصنع كيفما اتفق وبلا دقة ليُباع بثمن رخيص ، وهذا هو الجزء الأكبر والأعم .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الآشوريين لم يبلغوا ما بلغوه من إتقان صناعة حفر الأحجار الكريمة الصلبة دُفْعَةً واحدة ، بل ربما قطعوا في ذلك أجيالاً عديدة . لأن قداماء السكديانيين بدأوا هذه الصناعة بتخطيط أشكال ساذجة حفرها على الحصا بكيفية بعيدة عن أصول وقواعد الفن كل البعد . ثم تقدموا تدريجاً فجازفوا بالحفر على النِّهَاء ^(٢) (albâtre) ، والجَزَع الحَبَشِي ^(٣) (Onyx) ، والحجر أو الرخام السمّاق (porphyre) وما إلى الرخيص الثمن من هذه الأحجار لقلّة قناتها .

(١) قد نعرض كثيراً في ترجمة هذه الجملة وذلك لأجل إيضاح غرض المؤلف .

(٢) وهو نوع من الرخام ضعيف به قليل من الشقوق (٣) ويسمى أيضاً عقيق يمانى .

ورويداً تدرجوا ، في أمد طال الى أواخر عهد نينوى ، حتى استطاعوا النقش على الأحجار النفيسة التامة النقاء والصفاء من العقيق الأحمر (cornaline) والعقيق الأبيض (calcedoine) ، الشديدة الصلابة ، التي لا يمكن حكها أو صقلها بالحفر عليها إلا باستعمال مسحوقها . وقد توصلوا الى أن يصوروا عليها نقوشاً دقيقة الصنع من النوع البارز

أما الاختتام الاسطوانية الكلدانية القديمة فانها ساذجة من حيث نقوشها ، وغير متقنة الصنع ، وليس فيها ما يجعل لها أيّة قيمة على الإطلاق ، إلا اذا اعتبرناها كمرجع فني تاريخي يستدل منه على تاريخ تقدم الفنون . أمّا بعض ما عثرنا عليه مما صنع منها مؤخراً في نينوى فيمكن أن يُعدّ بمحقّ تحملاً فنيّاً تستوقف النظر لجمال مادتها ودقّة صنعها ، وذوقها الفني

وبواسطة هذه المنتجات الفنية ، قبل غيرها من الوسائط ، قد استطاعت الحضارة الآشورية أن تسرب الى بلاد الغرب . نعم ، بهذه المصنوعات الثانوية التي تناولت الأشياء المستعملة يومياً كالأثاث المنزلية التي من العاج المطعم ، والمزهريات (vases) البرزنية ، والأقنعة المطرزة ، والسيوف ، والأسلحة ، والحلي ، والحجارة الكريمة المنقوشة ، قد تسنى لعقل وروح وذوق وغازج سكان ما بين النهرين أن تتوغل فتوقظ عبقرية الأم التي كانت لم نزل هاجمة في سُبّات الحياة الفطرية الرتيبة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

* * *

وسنرى عندما نكتب عن انتشار حضارة الشرق في بلاد الغرب كيف ان كلدة ومصر^(١) حضرتا بلاد الأغرريق ، ومهدتا له بكدهما المتواصل البطيء مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة ، وكيف ان هذا العمل العظيم الذي غمطها التاريخ حتمها فيه الى الآن هو الذي ساعد على انبثاق نور المدينة

(١) انرا كتاب « مصر أصل الحضارة » تأليف الاستاذ سلامة موسى الذي نشرته المطبعة المصرية في عام ١٩٤٧ .





gustave lebon



غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس ١٨٨٤»، و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس» و«سر تقدم الأمم» و«روح الاجتماع، الذي كان انجازه الأول. وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر غوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضل للحضارة الإسلامية على العالم الغربي.

وقد قام لوبون برحلات عدة ومباحثات اجتماعية خلال حياته في العالم الإسلامي، اعتقد بموجيها أن المسلمين هم من مدّنوا أوروبا، وقد عبر عن آرائه بالمسلمين وحضارتهم في كتاباته.

حضارة بابل وآشور

